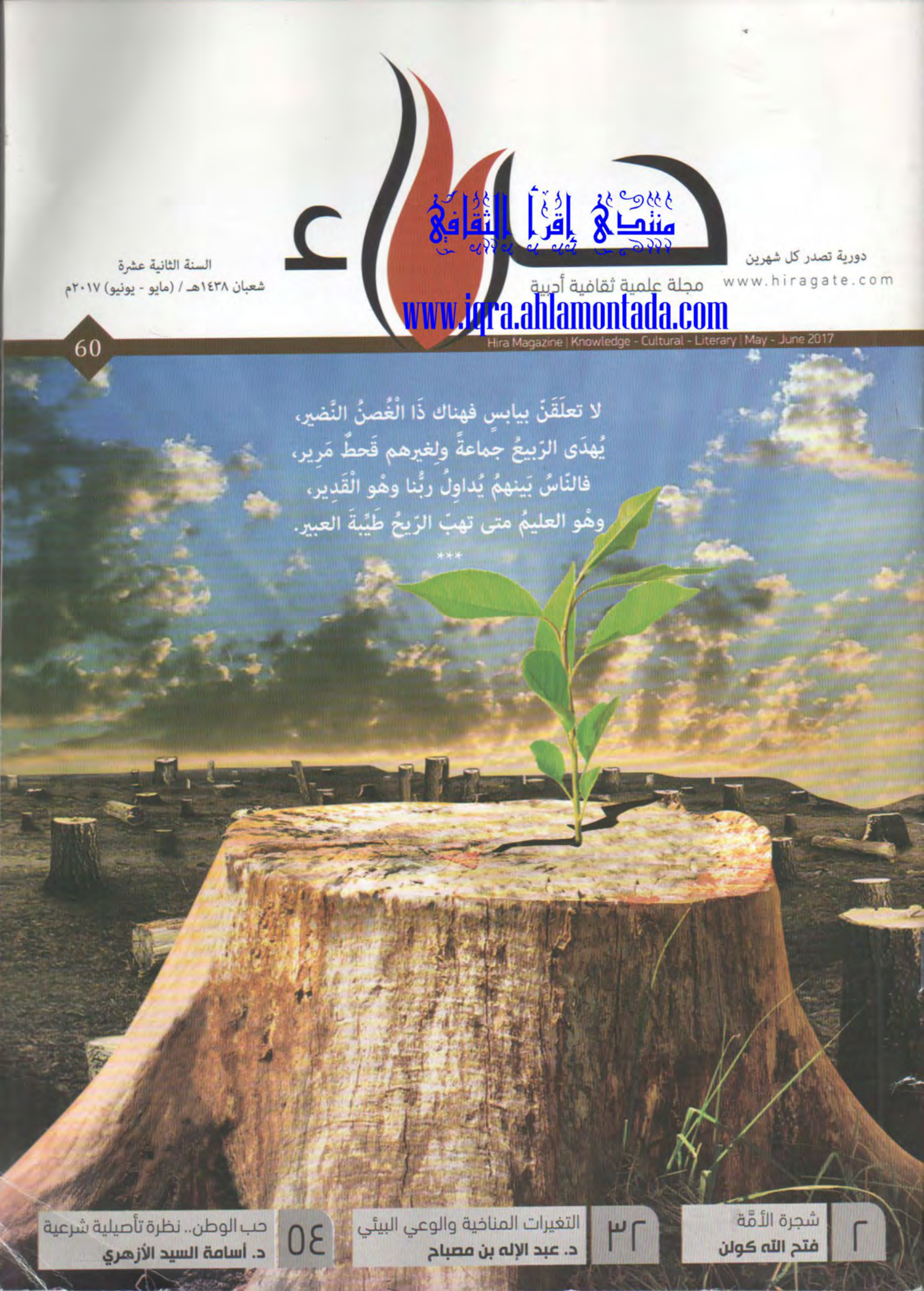

حراء
منتدى إقرأ الثقافي
دورية تصدر كل شهرين
www.hiragate.com
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.iqra.ahlamontada.com
السنة الثانية عشرة
شعبان ١٤٣٨هـ / (مايو - يونيو) ٢٠١٧م
60
Hira Magazine | Knowledge - Cultural - Literary | May - June 2017
لا تعلَقَنّ بيابسٍ فهناك ذَا الْغُصنُ النَّضير،
يُهدَى الرّبيعُ جماعةً ولِغيرهم قَحطٌ مَرِير،
فالنّاسُ بَينهمُ يُداوِلُ ربُّنا وهْو الْقَدِير،
وهْو العليمُ متى تهبّ الرّيحُ طَيِّبةَ العبير.
***
٢ شجرة الأمّة
فتح الله كولن
٣٢ التغيرات المناخية والوعي البيئي
د. عبد الإله بن مصباح
٥٤ حب الوطن.. نظرة تأصيلية شرعية
د. أسامة السيد الأزهري

الفرد والمجتمع

لا تزال حراء تؤكد منذ عددها الأول على مركزية الإنسان في أيّ بناء حضاري، وضرورة الاهتمام ببنائه بناء يوازن بين التنشئة الفكرية والتربية الروحية. فإذا تم بناء الفرد وفق هذه الرؤية، فسوف تظهر آثارها الإيجابية في المجتمع بعد حين، وإنه "لا يصلح المجتمع إلا بأفراد تشبّعوا بروح الإيثار والإخلاص والتفاني" كما يؤكد على ذلك الأستاذ القدير فتح الله كولن في المقال الرئيس "شجرة الأمة". والأستاذ كولن -كما لا يخفى على قراء حراء- يراهن في مشروعه الإصلاحي على بناء الفرد، حيث يقول: "محال أن يتشكل مجتمع سليم من أفراد أنانيين شُلّت أرواحهم بألف عاهة وعاهة".

ومحمد السقا عيد ينبهنا في مقاله "آية تبحث عن تفسير" إلى أن كل كائن في هذا الوجود آية، فالذّرّة آية، والزهرة آية، والفراشة آية كذلك. وكل آية من هذه الآيات تحمل معاني ورسائل إلينا تساعدنا على فهم حقيقة الوجود، ومعرفة خالقنا، وإثراء رصيدنا العلمي، وتنمية حياتنا. ولا فرق بين الآية الكونية والآية القرآنية من حيث المعاني التي تحملها، لأن مصدرهما واحد. لكن الآيات الكونية تحتاج إلى مفسرين يتأملونها ويترجمون لنا كلماتها.. والمقال تفسير لآية الفراشة بأسلوب بديع شيق.

وعبد الرحيم باحمو يلفت أنظارنا في مقال "المقاصد الأخلاقية للصلاة" إلى البعد الأخلاقي للصلاة، حيث يعتبر الصلاة الحبل الواصل بين العبد والخالق، وبين العبد والخلق. فمن خلال الصلاة يزكو الإنسان ويُحسن الأدب مع الله، ومن خلالها كذلك يتخلق بمكارم الأخلاق ويبتعد عن مساوئها فيكون عنصرًا صالحًا في المجتمع. أما صهيب مصباح فيسترعي انتباهنا في مقال "الحدود التربوية للخلاف العالي وأبعادها الجمالية" إلى قضية الاختلاف التي باتت كارثة في عالم المسلمين لغياب فقه سليم للاختلاف فيما بيننا، فيؤكد أن الإسلام جاء بقيم غاية في الدقة والجمال في تدبير الاختلاف إذا تم تفعيلها فستظهر نتائجها المبهرة.

أما خلف أحمد أبو زيد فيأخذ بأيدينا في رحلة تاريخية يطلعنا من خلالها على علم التخدير والمجهودات الرائدة التي بذلها الأطباء المسلمون في هذا المجال الذي برعوا فيه أيما براعة. في موضوع آخر، أصبحت اليوم قضايا البيئة وسبل الحفاظ عليها هاجسًا عالميًّا يستدعي مقاربات وحلولاً مشتركة.. ومن ثم يؤكد عبد الإله بن مصباح في مقاله "التغيرات المناخية والوعي البيئي" أن معضلة التغيرات المناخية باتت اليوم تطرح نفسها بحدة، ويجب ألاّ تبقى حبيسة الحلول التقنية، لأن المسألة في أصلها هي أعمق من ذلك بكثير، إذ لها جذور أخلاقية ضاربة في أعماق الفراغ الروحي.

أما المفكر العالم الأريب أسامة السيد الأزهري فيعالج مفهوم "حب الوطن" من منظور شرعي، مؤكدًا على مكانته السامية في المصادر الإسلامية، حيث يقول: "إن الشرع الشريف غرس في نفس الإنسان حب وطنه، وزكّى فيه دوافعه الفطرية النبيلة في الانتماء للأوطان وحبها والدفاع عنها، حتى أشار إلى نبل انتماء الإنسان لوطنه في عدد من الآيات والأحاديث الشريفة".

هذه إشارة مختصرة إلى بعض مقالات هذا العدد الحافل بكتابات قيمة أخرى، ومقطوعات أدبية راقية سهرت على كتابتها عقول جادة وقلوب مرهفة، فنرجو أن ينال الإقبال والقبول. ■



المحتويات



فتح الله كولن



شجرة الأمّة

لا ينال الفردُ السعادة والنجاح إلا في مجتمع ينبض أمنًا وسلامًا، ولا يصلح المجتمع أو ينعم بالسكينة والرضا إلا بأفراد تشبّعوا بروح الإيثار والإخلاص والتفاني. محال أن يتشكل مجتمع سليم من أفراد أنانيين شُلّت أرواحهم بألف عاهة وعاهة. محال أن يحظى بالسعادة أفراد لم يجدوا مجتمعًا صحيحًا يتفيؤون ظلاله ويحتمون تحت أجنحته الحانية. إن الأفراد ينسجون المجتمع جزءًا بعد آخر نسجًا بديعًا، وإن المجتمع يحنو على أفراده الذين يشكلونه، يشملهم برعايته الخاصة ويأخذ بأيديهم إلى العُلا، ويفتّق مواهبهم الذاتية حتى يحوّلهم سماويين. في ظل تعاهُد كهذا فقط، يصبح المجتمع متوازنًا خفاقًا بالأمل واعدًا، ويعيش الفرد في

أرجائه عزيزًا كريمًا. في ظل مجتمع كهذا، يجد الطالب فرصة لتحصيل العلم، ويجد العالِم إمكانًا لسكب مواجد روحه في قلب طلابه. في ظل مجتمع كهذا، تعجّ المكتبات بطلبة العلم، ويغدو العلم ملكًا للجميع، وينعكس الفكر على العبادات، وتؤول العبادات فكرًا. إن مدينة هذا سمتُها، لَمَدينة فاضلة وسكانُها سعداء.

إن الفرد لا يمكن أن يعيش عزيزًا كريمًا، في مجتمع أصابه التحلل والعفن في بعض أجزائه، وحاصره الخصوم من كل جانب. في مجتمع كهذا، لا يمكن لطالب علم أن يحصّل علمًا حقيقيًّا، ولا يمكن لعالِم أن يُودع أحدًا علمَه، بل لا يمكن لأحد أن يقوم بواجباته تجاه خالقه. في مجتمع كهذا، محال لأي امرئ أن ينقذ سفينته من الغرق. فما بالك إذا كان هذا المجتمع مخترَقًا من خصومه، بل ينمو ويترعرع في مهد يهزّونه، يتحدث لغتهم، ويلوّح لهم بمناديل الفرح، ويَحُلّون من قلبه في أعزّ موطن.

لقد كانت العداوات في الماضي تَفِد علينا من الخارج عمومًا، أما عداوات الداخل فكانت محدودة الأسباب، تنشأ عن الجهل والتعصب وأمور أخرى مشابهة، وكان التصدي لها والقضاءُ عليها ميسورًا. أما اليوم، فهناك كتائب من الخصوم غاية في الانتظام والتجهيز، تشنّ الغارة تلو الأخرى على موقع القلب من المجتمع تبتغي القضاء عليه، بل وتستغلّ طِيبته وحساسيته إزاء بعض القضايا للإجهاز عليه. فإذا فقد المجتمع حساسيته، والفرد تأهّبه إزاء هذه الغارات شديدة الفتك عميقة الخبث، فقد حانت لحظة مطعن ألب أرسلان[1] غدرًا، ومقتل الفاتح[2] بالسمّ مكرًا. "حينها يدق الناقوس في مخ عثمان، ويُمحَى اسم المولى من الفضاء، ويصمت الأذان" على حد قول الشاعر[3].

إن أخوف ما نخافه، أن ينتشر العدو وتسري العداوات في شرايين المجتمع من أوله حتى آخره، يأكل في جسمه من الداخل، ويذيبه شيئًا فشيئًا كسرطان يسري في العروق. وإن الحشود التي تقع في شراكٍ نصبها لها أعداؤها على هذا النحو، تفقد قدرتها على تمييز عدوها من صديقها، بل تحسب أشد الخصوم فتكًا بها وامتصاصًا لدمائها وتمزيقًا لأعصابها؛ صديقًا حميمًا.

إن أخوف ما نخافه، أن ينتشر العدو وتسري العداوات في شرايين المجتمع من أوله حتى آخره، يأكل في جسمه من الداخل، ويذيبه شيئًا فشيئًا كسرطان يسري في العروق. وإن الحشود التي تقع في شراكٍ نصبها لها أعداؤها على هذا النحو، تفقد قدرتها على تمييز عدوها من صديقها.

أجل، حينما تكون بصيرة الأمة عمياء إلى هذا الحد، ويكون الخصم مكّارًا فتّاكًا إلى هذا المدى، فذلك يعني أن "حصان طراودة" قد اجتاز الأسوار، وتسلل إلى الداخل، وباتت القلعة في خطر جسيم.

عندما اكتشف الفكر الاستعماري الذي لم يتوان لحظة عن إثارة الحروب وسفك الدماء لوأد هبّات انبعاث أمتنا في مهدها، سِرَّ هزيمتنا، تغاضى عن هزيمة "فيينا" و"بواتيه" ولم يعد يفكر فيهما بتاتًا، بل اتخذ لنفسه منحى جديدًا، مرددًا "لتُفتَح القلعةُ من داخلها"، وأخذ يُعِدّ العدة بناء على ذلك، ويهيئ مواقع جديدة تناسب هذا المنظور الجديد.

ليت "المستنيرين" من نخبنا تنبّهوا مبكرًا لهذا الحراك الجديد. لكن هيهات، فقد مضى زمانٌ مشئوم اعترى فيه نُخبَنا "المستنيرة" حالةٌ من النعاس، وغطوا جميعًا في سبات عميق بعد أول حكاية قُصّت عليهم كحواديت الأطفال، وباتوا يحلِّقون في عوالم سحرية من الأحلام الوردية.

في هذه الفترة الكارثية، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، وبعدما غيّر العالم الآخر أهدافه، نشر كل ما في جعبته من بضائع رديئة في ساحاتنا بأثمان رخيصة مغرية، وعرض أمام الأنظار أتفه الأفكار على أنها قطع ألماسية، وروّج لها بحملات إعلانية طنّانة رنّانة، وراح المهرّجون يختالون بملابسهم الهزلية بين الناس وكأنهم ممثلون محترفون، فصفقت لهم بعض النفوس المريضة ذات النظر المحدود، وراحوا يهللون بأسمائهم على أنهم "حَواريون". في مقابل ذلك، تعرضت روح الأمة لهزّة بعد أخرى وانهيار بعد آخر، وانسحقت تحت

إن الفرد لا يمكن أن يعيش عزيزًا كريمًا، في مجتمع أصابه التحلل والعفن في بعض أجزائه، وحاصره الخصوم من كل جانب. في مجتمع كهذا، لا يمكن لطالب علم أن يحصّل علمًا حقيقيًّا، ولا يمكن لعالِم أن يُودع أحدًا علمَه، بل لا يمكن لأحد أن يقوم بواجباته تجاه خالقه.

حراء

جبال من الجليد المروعة الزاحفة من أصقاع الشمال.

وعندما طفت على السطح أحقاد تاريخية تراكمت عبر عصور مع الحرب العالمية الأولى، تصدّى لها فرسان من الأناضول فلملموا شعثهم وجمعوا شملهم من جديد، وتداعوا إلى جبهات النضال في كل أنحاء الوطن بكل ما يملكون من شحذ معنوي وحماسة روحية، فكان النصر المبين.

لقد بدا للعيان أن السلاح هو المنتصر، لكن روح الأمة هي من انتصرت في الحقيقة؛ وكانت المهمة الكبرى بعد ذلك النصر، رفعَ قضية الاستقلال عاليًا كالراية التي ترفرف في الفضاء، وحمايتَها بكل قوة، وشحذَ الهمم للسير بها قدُمًا. وكان ذلك يقتضي تكريم "روح الأمة" التي لبّت نداءات الكفاح في كل أرجاء الوطن، من أجل تصفية حساباتها مع خصوم حاربوها عبر قرون، كما كان يقتضي إبعاد أرواح خبيثة لم تفتر عن إثارة الفوضى والبلبلة والارتباك في المواقع الخلفية من الجبهات. لو أن ذلك قد تم فعلاً، لظفر عالمنا بروح جديدة برّاقة تخفق بحب الإنسان وعشق الحرية.

ولكن هيهات، فقد ابتُلينا بمن سَطَلَتْه نشوةُ الانتصار، ومن هرول ليسطو على أملاك غالية بثمن بخس منتهزًا حالة الفراغ، ومن أسرع إلى تشكيل أحزاب غامضة للحصول على حظ أوفر من المسلوب والمنهوب، بل فوجئنا بانتهازيين استغلُّوا عواطف الجماهير في تبجيلهم لبعض البطولات الملحمية التي حدثت في ساحات النزال، لكي يركبوا بها على أكتاف السُّذَّج منهم كذبًا وزورًا، وصُعِقنا بحَياة النعومة والترف التي رفل فيها ورثة الفكر الاستعماري، ممن أغمدوا خناجرهم في قلب إنساننا مكيدة وغدرًا.

في المقابل، مُحي من الذاكرة أبطال جعلوا من صدورهم سدًّا منيعًا في وجه المحتلِّين ولم يسمحوا لهم بالعبور، وبذلوا كل غال ونفيس في خدمة الأوطان، و"سقط أرضًا برصاصة أصابت جبهته الطاهرة"[٤]؛ فحُرمت أجيالنا اللاحقة من التعرف على إنساننا المثالي بغاياته السامية وآماله الكبرى.

في بلد كهذا، يصبح الشعب شقيًّا سيء الطالع، ويضحي الوطن يتيمًا بلا كافل. إذا فحصتم جميع مؤسساته جزءًا جزءًا، فلن تعثروا فيها على أثر من روحكم، ولن تروا عشقًا للعلم أو حبًّا للحقيقة أو أخلاقًا فاضلة. إن جسم الأمة في عالم كهذا، مليء كله بالثقوب والشروخ، العلمُ فيه تهريج، ودُور التعليم سيرك وملاهٍ.

في بلد كهذا، تُحقَن الأجيال بالإلحاد والإباحية عبر مناهج البحث عن الحقيقة. في بلد كهذا، القلوب قاسية بلا رحمة، والعواطف رديئة منحطة، والنظرات خالية من بريق الحقيقة، لا تنضح إلا كذبًا وزورًا؛ خاصة في ظل معالجة القضايا بكل ما يستميل العينَ والأذنَ ويستهوي الألسنَ والشفاه، مقابلَ إقصاء الروح ومعانيها جانبًا كخرقة بالية؛ تلك الروح التي تشكّل إكسيرًا لنهوض حشود هائمة تئنّ وتتلوّى وسط ألف دوامة ودوامة؛ تلك الروح التي هانت علينا في سبيل استنقاذها من الأسر نفوسُنا ودماؤنا ونحن نجاهد في سبع جبهات. فهل كانت تلك الوقائع التي خُضناها بكل بسالة، من أجل أن نقع في أسرٍ جديد هو المادة؟

لقد صار "صنم المادة" يترصد الأجيال عند كل منعطف، يقطع طريقها، ويعصف في بعض الأحيان بأفكارها وعواطفها فيخلّف وراءه دمارًا مخيفًا. بات يزعم أنه محراب الجماعات البشرية بعد اليوم. أما التكنولوجيا الوحشية التي لم تتهذب وتندمج في مسار روحنا الذاتية الأصيلة، فتلك وباء قاتل.

لقد فرضت التكنولوجيا سلطانها على حياتنا في وقت لم يتهيأ فيه أفرادنا ليصبحوا مجتمعيين متضامنين، ولم تنضج لديهم أفكار سامية مثل نذر النفس في سبيل الأمة، فوقع المجتمع في براثن الخمول، وعمّت الأفرادَ الأنانيةُ، واستولى عليهم النفور وسوء المعشر، وبات الإنسان عدو الإنسان. تحوّل الرئيس والمرءوس،

وصاحب العمل والعامل، والموظف والمواطن، والمعلم والتلميذ، والوالد والولد، إلى ذئب يترقب كلٌّ منهما الآخرَ لينقضّ عليه في أي لحظة؛ وهكذا اندفع مجتمعنا بكل شرائحه إلى حتفه اندفاعًا. ولولا يد العناية التي امتدت إليه من حين لآخر تساعده على تقويم ظهره، لانمحى من صفحة التاريخ دون أن يُعقِب أثرًا. لذلك لا مناص من إعادة النظر في روحه المتحجرة وقلبه المخدَّر والشروعِ في إصلاحهما، وعدمِ الاكتفاء بترميم جدرانه الخارجية.

إن الأبطال الذين تعهّدوا بحمل راية المستقبل على أكتافهم ورفعِها عالية في السماء، سيُثبِتون إخلاصهم وصدقهم بحجم شعورهم بثقل تلك المسؤولية في كل خطوة يخطونها. لن تكون أفكار هؤلاء ورؤاهم خاضعة لإكراهات الحياة، بل ستنقاد لهم الحياة في فهمهم للحقيقة. هؤلاء، سيثورون على كل حياة تنقضي دون الشعور بعمقها أو الوعي بمعانيها، سيثورون على كل حرمان من وقدة عشق أو شعلة حماس، سيثورون على اللامسؤولية القابعة في أعماق نفوسهم، ويثبتون أنهم "موجودون" حقًّا.

إن مجتمعًا بلغ هذا المبلغ من النضج مستنيرًا بإرشاد هُداته الأمناء، جاهز لتحقيق التجديد والانبعاث (Renaissance) في ذاته. وإذا كنا متفائلين بانبعاث جديد كهذا -قد بدأت بشائره تلوح في أفقنا- فذلك يرجع إلى ثقتنا بسلامة "شجرة الأمة" المشمولة برعاية صاحب الرحمة اللانهائية. ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٤٩، السنة ١٩٨٣، أصل عنوان المقال باللغة التركية: (Var Olma)، الجزء الثاني من سلسلة الجيل والعصر. الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

الهوامش

(١) السلطان السلجوكي العظيم الذي قتل غيلة على يد أحد الثائرين في ٢٩ نوفمبر ١٠٧٢. (المترجم)

(٢) السلطان محمد الفاتح، فاتح إسطنبول عام ١٤٥٣، وتقول الروايات إنه قتل مسموما ولقي مولاه سنة ١٤٨١. (المترجم)

(٣) الشاعر محمد عاكف أرسوي صاحب نشيد الاستقلال الوطني التركي، توفي سنة ١٩٣٦. (المترجم)

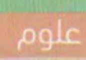
(٤) عبارة من قصيدة لشاعر النشيد الوطني التركي محمد عاكف، كتبها عن ملحمة "جَنَقْ قَلْعَة" أثناء الحرب العالمية الأولى. (المترجم)



غربة الغروب

جَوُّ الوجدان بغمائم الغروب أسيان،
ورذاذُه نقيع حزن على الضمير الولهان..
قشعريرة وارتعاش يهزُّ الأعماق،
ويبعث الألم في الكيان..
وإذا ما غاب النهار وأسدل الليل الأستار،
فأبشر بميلاد يوم جديد من رحم كل مساء،
وموسمِ ربيع من أحشاء كل شتاء،
وبعثٌ قادم بعد موت وفناء.

***



د. محمد السقا عيد*

آية تبحث عن تفسير

ظلت الفراشات مثار خيال الإنسان منذ آلاف السنين كرمز للجمال والرقّة، فُتن الناس بجمال أجنحتها الرقيقة ذات الألوان الجذابة. استحوذت الفراشة على مساحة واسعة من المعتقدات الدينية عند بعض الشعوب القديمة؛ حيث كان قدماء الإغريق يعتقدون أن الروح تغادر الجسد بعد الموت على شكل فراشة. هذا ويُعدُّ جمال الفراشة مصدرًا من مصادر إلهام الفنانين والشعراء.

وعلى الرغم من أن هذه الكائنات دقيقة في شكلها، إلا أنها حشرات يكتنفها الغموض، ولديها أنماط سلوكية معقدة تنظم علاقاتها وأساليب تكاثرها، وتمنحها قدرة التكيف مع بيئتها.

تناظر الجناحين

لو أمعنا النظر في أجنحة الفراشة، سنراها متناظرة الشكل تمامًا؛ فجناحا الفراشة متشابهان في رسوماتهما وانتظام نقاطهما وألوانها التي تتكون من أقراص صغيرة جدًا مرتبة بجانب بعضها البعض، ولكن إذا لمسنا هذه الأقراص فسنرى أنها تتشتت وتتبعثر بسرعة. ليس على وجه الأرض فراشة أجنحتها بدون نظام، وهذا يؤكد على أنها من صنع رسام واحد أو خالق واحد عظيم لا مثيل لخلقه، يبين لنا جماله وجلاله من خلال هذه الأجنحة التي تبهر العيون وتأخذ بالألباب.

سر ألوان الفراشات

تتميز ألوان أجنحة الفراشات عن ألوان أجسام بقية أنواع الكائنات الحية نباتاتها وحيواناتها بعدة ميزات، أولها العدد الهائل للألوان المختلفة التي تظهر على أجنحة الفراشات، بحيث يعجز البشر عن إطلاق أسماء على هذه الألوان. أما ثانيها فهي وجود عدد كبير من الألوان المختلفة على جناح الفراشة الواحدة، وهي مرسومة على شكل لوحات فنية عجيبة يعجز أعظم رسامي البشر عن تقليدها، خاصة وأنها مرسومة على لوحات بالغة الصغر إذا ما قورنت بلوحات الرسامين. أما ثالثها فهي أن ألوان أجنحة معظم الفراشات تتغير مع تغير زاوية نظر مشاهدها، وأن لها بريقًا لا يوجد في ألوان الأشياء الأخرى. أما الميزة الأخيرة وهي المسؤولة عن الميزات السابقة، فهي أن الطريقة التي تتولد من خلالها ألوان الفراشات تختلف تمامًا عن تلك المستخدمة في بقية أنواع الكائنات الحية الأخرى وكذلك الجمادات. ففي هذه الطريقة يتم استخدام تقنيات بالغة التعقيد، تعتمد على ظواهر فيزيائية متعددة للحصول على هذا التنوع الهائل في ألوان أجنحة الفراشات. إن هذه التقنيات تحتاج إلى تصاميم بالغة الدقة لبنى هندسية تقاس أبعادها بوحدات النانومتر (النانومتر جزء من بليون جزء من المتر)، أو ما يسميه العلماء اليوم بـ"تقنية النانو" (Nanotechnology).

مصدر الألوان

تغطي أجنحةَ الفراشة حراشفُ دقيقة مسطحة متداخلة



تستخدم الفراشة تقنية تحويل الطاقة الضوئية إلى حرارية لتساعدها على التدفئة في البرد، هذا ويبذل العلماء الجهود الجهيدة لمجرد تقليد هذه الآلية التي تستخدمها الفراشة.

فيما بينها، وهذه الحراشف مصدر للألوان والتشكيلات الرائعة الموجودة في أجنحة الفراشات. وتحتوي بعض الحراشف على الأصباغ (مواد تلوين) التي تنتج الألوان السوداء والبنية والحمراء والبيضاء والصفراء، بينما تنتج أنواع أخرى من الحراشف الألوان بعكسها للضوء على أسطحها. ومن الألوان المعدنية البراقة التي تعكسها تلك الحراشف اللونان الأزرق والأخضر.

ولمزيد من التوضيح نقول: يتكون جناح الفراشة من مادة جلاتينية شفافة تستخدم كقاعدة لوضع البنى الهندسية، وهي عبارة عن حراشف شفافة يبلغ طول الواحدة منها ٢٠٠ ميكرومتر، وعرضها ٧٠ ميكرومتر. ويتم تحديد اللون أو الألوان التي تعكسها هذه الحراشف، من خلال التحكم بسُمكها وأبعاد الحزوز الموجودة عليها. هذا وقد قام العلماء باستخدام الميكروسكوبات الإلكترونية لدراسة تركيب أجنحة الفراشات، حيث أظهرت لهم الصور البنى الهندسية الدقيقة الموجودة على حراشفها، ثم قاموا بقياس أبعاد هذه البنى، فبينت حساباتهم أن لون الضوء المنعكس عنها يتطابق تمامًا مع لون الضوء الفعلي.

إن تحديد أبعاد البنى الموجودة على أجنحة الفراشات، يحتاج لصانع لا حدود لعلمه وقدرته، فمعظم أنواع الفراشات تحتوي أجنحتها على عدد كبير من الألوان، ولذا يلزم تغيير الأبعاد عند كل مكان يتغير فيه اللون. ثم إن الأشكال الموجودة على أجنحة



قام العلماء باستخدام الميكروسكوبات الإلكترونية لدراسة تركيب أجنحة الفراشات، فوجدوا بنى هندسية دقيقة على حراشفها، وعندما قاموا بقياس أبعاد هذه البنى، تبين أن لون الضوء المنعكس عنها يتطابق تمامًا مع لون الضوء الفعلي.

الفراشات ليست مرسومة بطريقة عشوائية، بل لتؤدي أغراضًا محددة كالتخفي عن الأعداء أو تخويفهم من خلال أشكال العيون الموجودة عليها، أو لأغراض جلب شركائها للتزاوج.

وعليه فإن تصميم أبعاد البنى الهندسية الموجودة على الأجنحة عملية في غاية الصعوبة، ولعل البشر سيقفون عاجزين عن تقليدها مهما بلغ التطور في تقنيات تصنيع الإلكترونيات وتقنيات النانو.

تتم عملية تصنيع أجنحة الفراشات وما عليها من بنى هندسية، تحت سيطرة شفرات الحامض النووي الموجود في خلايا الفراشة، فكل حرشفة من هذه الحراشف، هي عبارة عن خلية حية واحدة يتم فردها على سطح الجناح، وتتشكل هذه الخلية لتنتج أشكال البنى المطلوبة. وهكذا نرى لوحات فنية في غاية الروعة، تتضاءل أمامها أجمل اللوحات الفنية التي رسمتها أيدي البشر.

وفي السنوات الأخيرة بدأ العلماء العمل على الاستفادة من التقنيات الضوئية المستخدمة في الفراشات في تطبيقات لا حصر لها؛ كالحصول على ألوان للسيارات بدون استخدام الطلاء، وكاستخدامها في مكونات الاتصالات الضوئية.

خَلْق الفراشات

إذا كان العلماء قد اكتشفوا أن في قرني استشعار الفراشة مستشعرًا شمسيًّا يمكّنها من التوجه، إلا أنهم لم يزالوا يجهلون كيف تتمكن هذه الفراشة من الحفاظ على الاتجاه المطلوب في الطقس الممطر! مما جعلهم يقولون إن للفراشات جهازًا يشبه البوصلة يقيس الانحراف المغناطيسي.

وأشارت دراسة عن الفراشة إلى أنها قادرة على التوجه بواسطة بوصلة مغناطيسية، باعتبارها تقطع مسافات طويلة؛ إذ تنطلق من شرق الولايات المتحدة وجنوب كندا، لتطير باتجاه الجنوب الشرقي حتى تصل إلى الغابات الواقعة غربي مدينة مكسيكو حيث تقضي الشتاء.

تستخدم الفراشة تقنية تحويل الطاقة الضوئية إلى حرارية لتساعدها على التدفئة في البرد، ويبذل العلماء الجهود لمجرد تقليد هذه الآلية التي تستخدمها الفراشة.

تنتج الفراشات بعضًا من أعجب الألوان في الطبيعة غير الناتجة عن أصباغ، ولكن تنتجها تركيبات متناهية في الصغر تتحكم فيها طبيعة الضوء، ويأتي خداع الألوان من التركيب المفصل لجناح الفراشات التي أتقنت هذا الفن.

عما قريب قد تظهر ألوان أجنحة الفراشات القزحية العجيبة التي تتغير من حين لآخر على الملابس التي نلبسها، فالعلماء البريطانيون يدرسون الآن الخداع البصري الذي تستعمله الفراشات لإنتاج ألوانها المبهرة، ويعتقدون أن النتائج قد تؤدي إلى إنتاج نوع من هذه الألوان ترش على الملابس.

ومن التطبيقات الأخرى لألوان أجنحة الفراشات، إنتاج بلورات سائلة جديدة وعلامات مضادة للتزوير





إن ألوان أجنحة معظم الفراشات تتغير مع تغير زاوية نظر مُشاهِدها، وإن لها بريق لا يوجد في ألوان الأشياء الأخرى. وإن الفراشة تستخدم تقنية تحويل الطاقة الضوئية إلى حرارية لتساعدها على التدفئة في البرد.

توضع على أوراق النقود.

تظهر أجنحة الفراشات تقنية النانوتكنولوجي، وقد جاء في مجلة ساينس ديلي أن أجنحة الفراشات تلهم الباحثين لعمل تقنيات جديدة من الأقمشة ومستحضرات التجميل إلى مجسات، والمجس (Sensor) هو أداة إلكترونية يمكنها استشعار الظروف والمؤثرات المحيطة بها، وإرسال إشارات كهربائية قابلة للقراءة.

يكشف الشكل المورفولوجي للفراشات، خصائص مثيرة للإعجاب من التكوينات متناهية الصغر النانوية التي تنتج صباغات الألوان على الأجنحة لتعطي شكلاً جذابًا، مما يؤدي إلى ظاهرة التقزح اللوني، والتقزح اللوني (Iridescence) هو ظاهرة فيزيائية وخاصية لبعض السطوح التي تظهر متغيرة اللون عند تغيير زاوية النظر إليها. وتظهر هذه الظاهرة جلية في فقاعة الصابون وأجنحة الفراش وصدف البحر. وهذه الأجنحة ذات خاصية التقزح اللوني للفراشات الاستوائية الزرقاء، يمكن أن تكون مصدر إلهام لجيل جديد من أجهزة الاستشعار، والأقمشة، ومستحضرات التجميل، وشاشات العرض.

تم الكشف من قبل العلماء عن سر اختلاف وروعة ألوان أجنحة الفراشات، حيث تم العثور على ما يشبه تصميمًا معماريًا من الأجزاء الدقيقة جدًا المكونة للجناح والتي تعطي هذه الروعة، وبالرغم من الاختلاف البسيط في هذه الطبقات بين السلالات المختلفة من الفراشات، إلا أنها تسبب اختلافًا ملحوظًا في المظهر الخارجي الرائع للأجنحة. ويستكمل الباحثون قولهم بأن هذه الاكتشافات سوف تساعدهم على تصميمات للألوان، توفر لهم الجودة والمادة، وتعطي تشكيلة من الألوان المختلفة، أي إن هذا الاكتشاف سيساعد على صناعة أغطية للمواد الصناعية التي يمكن أن تغير لونها أو تعطي ألوانًا مختلفة عن طريق التصميم، ولكن هذا إذا استطاع العلماء تقليد تلك الخصائص للأجنحة.

خاتمة

ما أبسطها من فراشة تنهض مع الشمس تطير بجناحيها الناعمين إلى أجواء حلم فاتن تتلو صلواتها على منابر الأغصان، يقف الزهر والزنبق في الحدائق سعيدًا أمامها تشارك العصافير غناها، والورد ضحكه، والنسيم همسه، والنور مظهره وصفاه.. تفتن الطبيعة بألوانها الزاهية كي تحيا وتسعد في بساتين الحياة، تعيش بألوان الفرح وتطلق الحب الكامن من حناياها وترسم السعادة بابتسامات الجمال.

إنه عالم الفراشات الجميل، صاحب الألوان الزاهية والحركة السريعة الأنيقة، وإن الأبحاث في عالم الفراشات مستمرة لا تتوقف، لتظهر لنا كم من الإبداع في خلق هذه الحشرة الصغيرة، وكم من العجائب في تكوينها، بالرغم من شكلها البسيط الذي لا يوحي بهذا الكم من العجائب داخلها، لكنها قدرة الله في خلقه. ■

(*) استشاري في طب وجراحة العيون / مصر.

عبد الرحيم باحمو*

> إذا وحّد العبد بين "القال-والحال" عَلَتْ منزلته عند مولاه، ومَن عَلَتْ منزلته عند مولاه، ارتفعتْ مكانته في النفوس، وكان لِقائِه وقعٌ في القلوب.
>
> الموازين

المقاصد الأخلاقية للصلاة

إذا كانت المقاصد أرواح الأعمال -كما يقول الإمام الشاطبي- فإن الأعمال بدون مقاصد تفقد روحها، لذلك شاءت حكمة الله تعالى أن تكون شريعته معللة بمصالح العباد، وإذا علم العباد بذلك سارعوا إلى الامتثال، وأحسنوا الظن بالله ﷻ، وكان فهمهم لمقاصد الشارع خير معين لهم على فهم نصوص الوحي وحسن تمثُّلها. من هنا تكمن أهمية فقه المقاصد إلى جانب فوائد أخرى.

والمتأمل للعبادات في الإسلام، يجد أن جلَّها -إن لم نقل كلها- لا يخلو من مقاصد أخلاقية، إما من جانب الوجود بالدعوة إلى مكارمها، أو من جانب

العدم بالنهي عن مساوئها، أو بعبارة أخرى، إما بالتحلية بمكارم الأخلاق، أو التخلية من مساوئها.

الصلاة ليست طقوسًا رياضية

إن المتتبع لنصوص الوحي والمتشبع لمعانيها، يجد أن الله تعالى حينما شرع الصلاة وفرضها على عباده، لم يرد منهم أن تكون صلاتهم له عبارة عن طقوس وأفعال رياضية يوزعونها بين الليل والنهار، وكأنها ضرائب يؤدونها ولو كراهية حتى يستريحوا منها، وهذا هو الغالب في زماننا وهو يخالف حقيقة العبادة ومقاصدها، وإنما يريد الله منهم الخضوع له بحب، وتعويد أنفسهم على ذكره، وتطهيرها من مساوئ الأخلاق، وتزكيتها بمكارمها، وتعويدها عليها، حتى تصير اختيارًا لها لا اضطرارًا عليها، فهي رغبة قبل أن تكون رهبة، وهي محبة وليست إكراهًا. يقول محمد الغزالي رحمه الله:

"والعبادات التي شُرعت في الإسلام واعتُبرت أركانًا في الإيمان به، ليست طقوسًا مبهمة وحركات لا معنى لها، كلاَّ، فالفرائض التي أُلزم الإسلامُ بها كلَّ منتسب إليه، هي تمارين متكررة لتعويد المرء بأن يحيا بأخلاق صحيحة، وأن يظل مستمسكًا بهذه الأخلاق مهما تغيرت أمامه الظروف".

للصلاة مقاصد أصلية وتابعة

إذا كان "للشارع في شرع الأحكام العادية والعبادية، مقاصد أصلية ومقاصد تابعة"، فإن الله تعالى جمع بين المقاصد الأصلية والمقاصد التابعة للصلاة في قوله سبحانه: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾(العنكبوت:٤٥)؛ فبيَّن أن الغاية من تشريع الصلاة، هي الارتقاء بالنفس البشرية إلى محاسن الأخلاق ومعاليها، وتعويدها عليها، وإشغالها بها حتى لا تنشغل بأضدادها، وتطهيرها من مساوئها، وسد الذرائعَ الموصلة إليها.

فالمقصد الأصلي في الصلاة، هو ذكر الله تعالى الذي هو أكبر فيها من النهي عن الفحشاء والمنكر، ويؤكد ذلك

إن العبرة ليست في الإكثار من الصلوات وغيرها من العبادات، وإنما في مدى تأثير هذه العبادات في أخلاق العبد وسلوكه، ومدى حضور قلبه عند دعاء ربه، فليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها.

ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾(طه:١٤)، والمقصد التبعي هو النهي عن الفحشاء والمنكر.

فالمطلوب من المكلف إذن، هو الامتثال لمراد الله تعالى من الصلاة، والتجلي في ذكره سبحانه والخضوع له، والابتعاد عن الفحشاء والمنكر.

وتذكُّر الله تعالى والخضوع له أعظم مقصد في الصلاة. يقول إمام المقاصد أبو إسحاق الشاطبي -رحمه الله تعالى- في سياق حديثه عن المقاصد الأصلية للصلاة: "فالصلاة مثلاً أصل مشروعيتها الخضوع لله سبحانه بإخلاص التوجه إليه، والانتصاب على قدم الذلة والصغار بين يديه، وتذكير النفس بالذكر له".

الابتعاد عن الفحشاء والمنكر

أما المقاصد التابعة للصلاة فهي متعددة، ومنها كما يشير الإمام الشاطبي: "النهي عن الفحشاء والمنكر، والاستراحة إليها من أنكاد الدنيا، وطلب الرزق بها، وإنجاح الحاجات؛ كصلاة الاستخارة، وصلاة الحاجة، وطلب الفوز بالجنة والنجاة من النار، ونيل أشرف المنازل".

فالغاية من إقامة الصلاة بعد ذكر الله تعالى، هي التخلق بمكارم الأخلاق والابتعاد عن مساوئها، ومن ثم فهي تهدف إلى العروج بالمكلف إلى ذكر الله تعالى، وإخراجه من أوحال الفحشاء والمنكر، إلى أنوار البر والمعروف.

وكما هو معلوم ومقرر عند الأصوليين، فإن النهي عن الشيء أمر بضده إذا لم يكن له إلا ضد واحد. وطبقًا لهذه القاعدة، فإن النهي عن الفحشاء والمنكر، أمر بتطهير النفس من الأخلاق الرديئة، وتزكيتها بالأخلاق الفاضلة.

في الصلاة قوة خلقية عظيمة، وفي هذه القوة مدد، أي مدد لضمير المؤمن، يقويه على فعل الخير وترك الشر، ومجانبة الفحشاء والمنكر، ومقاومة الجزع عند الشر والمنع عند الخير، فهي تغرس في القلب مراقبة الله تعالى ورعاية حدوده.

صلة الصلاة بالسلوك الإيجابي

وبناءً على ذلك، فإن الصلاة الكاملة والمقبولة عند الله، هي التي تترك أثرًا إيجابيًّا في سلوك المصلي وأخلاقه، فتنهاه عن "كل فعل أو قول قبيح يستنكره أصحاب العقول السليمة ولا يقره الشرع"، أي إنها تنهاه عن الفحشاء والمنكر، وتأمره بالبر والمعروف.

فكلما تخلَّق المصلي بأخلاق الإسلام كان لله أقرب، وكلما ابتعد عنها واتصف بأضدادها كان عن الله أبعد، وكانت صلاته مبتورة إن لم تكن مرفوضة، لذلك قال رسول الله ﷺ: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بُعدًا" (رواه الإمام أحمد).

وعليه فإن كل صلاة لا تراعى فيها الأخلاق السامية ولا تؤثر في صاحبها إيجابًا، أو إنه يفعل ما يضادها؛ فهي ناقصة إن لم تكن ملغية، لأنها مناقضة لقصد الشارع في تشريع العبادة.

ويؤكد ذلك ما ورد في قصة المرأتين اللتين سأل عن حالهما رجلٌ النبيَّ ﷺ قائلاً: يا رسول الله، إن فلانة تُذكَر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال ﷺ: "هيَ في النار"، قال: يا رسول الله، فإن فلانة تُذكَر قِلَّةَ صيامها وصدقتها وصلاتها، وإنها تَصَدَّق بالأثوار من الأَقِط، ولا تؤذي جيرانها بلسانها، قال ﷺ: "هي في الجنة" (رواه الإمام أحمد)، وذلكَ لأن عبادة المرأة الأولى لم تترك أثرًا إيجابيًّا على أخلاقها وسلوكها بخلاف الثانية. ومن هنا نستنتج أن العبرة ليست في الإكثار من الصلوات وغيرها من العبادات، وإنما في مدى تأثير هذ العبادات في أخلاق العبد وسلوكه، ومدى حضور قلبه عند دعاء ربه، فليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها؛ "فالإبعاد عن الرذائل، والتطهير من سوء القول وسوء العمل، هو حقيقة الصلاة".

والملاحَظ، أن الله ﷻ يربط الصلاة بالأثر المترتب عليها وهو أثر وجداني وأخلاقي، الأول يتمثل في ذكر الله والخضوع له مع استحضار القلب، والثاني في الابتعاد عن الفحشاء والمنكر والتحلّي بمكارم الأخلاق.

فالصلاة نور تهدي مُقيمَها إلى سواء السبيل، وتخرجه من أوحال المعاصي، وتنهاه عن الفحشاء والمنكر.. لذلك قال رسول الله ﷺ: "وَالصَّلاةُ نُورٌ" (رواه مسلم). والقائم للصلاة هو الذي تدفعه صلاته إلى مكارم الأخلاق وتنهاه عن مساوئها، فتدفعه إلى فعل الخير وتنهاه عن الشر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾(المعارج:١٩-٢٣).

ففي الصلاة قوة خلُقية عظيمة، "وفي هذه القوة مدد، أي مدد لضمير المؤمن، يقويه على فعل الخير وترك الشر، ومجانبة الفحشاء والمنكر، ومقاومة الجزع عند الشر والمنع عند الخير، فهي تغرس في القلب مراقبة الله تعالى ورعاية حدوده، والحرص على المواقيت، والدقة في المواعيد، والتغلب على نوازع الكسل والهوى، وجوانب الضعف الإنساني".

وخلاصة القول، إن المقصد من إقامة الصلاة هو أن يداوم المصلي على ذكر الله وشكره، وأن يتخلى عن مساوئ الأخلاق ويتحلى بمكارمها، حتى يكون صالحًا مصلحًا، وحتى يتأهل ويتأهب لحمل رسالة الاستخلاف التي خُلق من أجلها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦)، ويؤديها على أحسن وجه كما يريد خالقه، وإذا انعدم المقصد صارت الصلاة ملغية. ■

(*) باحث في الفكر المقاصدي، جامعة القاضي عياض بمراكش / المغرب.

صهيب مصباح*





الحدود التربوية للخلاف العالي وأبعادها الجمالية

الاختلاف سنة إنسانية جارية، تظهر أهميتها على مستوى تطوير آليات البحث، وتنمية العقلية الإسلامية في بحث قضايا الواقع. وليس من العيب الاختلاف، إنما العيب الجمود أو التقليد، ولذلك كانت الآية الكريمة ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ آيةً مشعرة بسنية الاختلاف في الوجود البشري، حتى كاد الاختلاف يكون علة في الوجود. ولهذا ساغ أن نجد الاختلاف في كل الميادين المعرفية الظنية، سواء في ذلك الشرعية أو الإنسانية على العموم، ليكشف الخلاف عن مظهر آخر من مظاهر الجمال في الإسلام، خصوصًا إذا كان في إطار حدوده التي رسمها له الفكر الإسلامي.

الحدود التربوية للخلاف العالي

نقصد بالحدود التربوية، ما يتعلق بطرفي الاختلاف، وبموضوع الاختلاف من القيم العلمية والتربوية، التي يجب الالتزام بها من أجل بناء نسق خلافي حضاري ومنتج. فإن الاختلاف

مفهوم تؤطره أركان ثلاثة، المتخالفان ثم موضوع الخلاف، وتنساق هذه الأركان مساق خطاب قيمي تربوي يؤدي رسالته، ليرسو بعد أخذ ورد على مرسى الائتلاف وهي الغاية من الاختلاف. ومن هنا كان الحديث عن الشروط القيمية التي تؤطر عملية الحوار العلمي من الأهمية بمكان، لما لها من أثر بالغ في صناعة الرأي أو صناعة الفقه، خصوصًا وإننا نعيش عبر مختلف القنوات الحوارية المقروءة والمسموعة والمرئية، على وقع حوارات تنساق مساق الجدل والشقاق الناتجين عن انحرافات على مستوى الطرح وعلى مستوى التلقي، ثم على مستوى المناقشة، مما يُغيّب للفكر الإسلامي جماليته ويفقده أبعاده.

ولذلك كان من الأليق أن نتحدث عن الحدود القيمية والتربوية التي ينبغي أن تسوس الخلاف العالي، سواء على مستوى الفقه أو على مستوى الفكر والقيم أو على مستوى صناعة الرأي الثقافي عمومًا، وعلاقة ذلك كله بعنصر الجمال في الدين والتدين.

١- صفاء المقصد

صفاء النية أو خلوص المقصد من الشوائب، شرط أساسي في كل عمل يُقدِم عليه الإنسان، يؤطره ما رواه البخاري وغيره من حديث: "إنما الأعمال بالنيات" (رواه البخاري)، وإنما كان هذا الأمر شرطًا، لأن الأمور بمقاصدها، خصوصًا وأننا صرنا نعيش على وقع حوارات شاردة مختلة العناصر، تغيب عنها الموضوعية المقاصدية، والتي نعني بها طلب الحق والقصد إليه. فإننا لا نفتقر إلى أرضية الحوار أو المناظرة -فإن لكل زمان رجاله ولكل حدث أوانه- بقدر ما نفتقر إلى رسم الرُّأى والأهداف وإخلاص النيات وكبح عنصر الـ"أنا" من التأثير في المنحى الحواري الهادف، ومن هنا تفاقمت الأزمة الفكرية التي نعيشها الآن.

إن عنصر المقصد يأخذ قيمة كبيرة في الفكر الإسلامي، باعتباره أصلاً تحوم حوله كل الأصول، سواء في العقيدة أو في الأحكام، وما تصدير الإمام البخاري -رحمه الله- صحيحَه بعلاقة الأعمال بالنيات، إلا إبراز منه لقيمة المقصد في تحقيق ثمار الأعمال، باعتبار النية ركنًا تقوم عليه صناعة الجمال، سواء على مستوى التعبير أو على مستوى التفكير أو التدبير.

وبهذا نتمثل قول الله ﷻ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾(البينة:٥)، وإنما كان تصديرنا بالنية، لأن الغاية من النية كما يقول الإمام القرافي: "تمييز العادات من العبادات". ومجال الخلاف في الفكر الإسلامي مجال للبحث عن الحقائق الشرعية التي تقوم بترشيد الفكر وتوجيهه الوجهة الصائبة، وبذلك ينال المختلفون الأجر عند الله تعالى إذا صلحت نياتهم، فيكون الخلاف بذلك عبادة تصنع أرقى صور الجمال في التدين.

٢- التوسل بالموضوعية.

الموضوعية أو العلمية، ألقاب تعني التزام المنهج العلمي الرصين في تحرير المفاهيم وتحليلها، ومناقشة القضايا وبنائها دون تقليد ولا تعصب ولا تحكم، فتقابل بذلك الذاتية، فكل منتسب إلى الإسلام محب له، والمحب بمن يحب كريم، وحب الشيء يبعث في المحب رؤية جمالية نحو المحبوب، كيف والمحبوب هو الإسلام؟ فمؤدى هذه المحبة الإنصاف العلمي الناتج عن التأمل في الآيات، ثم قبول رأي الغير المحلى بالأدلة المقنعة دون تعصب أو تمحل.

ونحن نتحدث في سياق الأبعاد التربوية لفقه الخلاف في الإسلام، تستوقفنا قيمة "الموضوعية" باعتبارها ملحظًا جماليًا بدا لي أن أسميه بـ"الاتزان الفكري"، أو نطلق عليه "القيام بالقسط"، وهو إطلاق قرآني يفيد هذا المعنى، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾(النساء:١٣٥)، وهو مبدأ يفرض ضرورة تجاوز عتبات المذاهب إلى اقتحام الأغوار واستلهام الأسرار، لتنكشف بذلك الأنوار بعيدًا عن ظلمة الذات أو سلطة المذهب أو شبح التقليد.. بذلك تتجلى سيمات الموضوع الحقة، وتنكشف قضاياه انكشافًا يبعث على الائتلاف إنْ على مستوى الفقه أو الحديث أو الفلسفة أو غير ذلك.

٣- فقه الواقع

ليس الفقه فقهَ الدين فقط، بل الفقه حلول شرعية لقضايا واقعية، وبهذا يكتسي الفقه جماليته، وتستمر صلاحيته.

وكثيرة هي الخلافات الفقهية الخارجة عن هذا السرب، والمغردة في حدائق الألفاظ أو أفنان الماضي الفاني، ومن هنا كانت قضية فقه الواقع من أثافي الخلاف العالي، إضافة إلى فقه الدين وفقه التنزيل.

إن جمالية الخلاف العالي ومقاصده، تفرض على المتخالفين ربط قضايا النقاش بالواقع، وسبر مناطاتها بناء على الظروف الزمانية والمكانية والإنسانية التي تحيط بها، وبهذا يتحقق الفهم السليم، ولذلك قال ابن القيم رحمه الله: "لا يتمكن المفتي من الفتوى إلا بنوعين من الفهم، أحدهما فهم الواقع والفقه فيه، وثانيهما فقه الواجب في الواقع".

وبما أن النوازل الفقهية ظنية، فإن الخلاف حولها لصيق بها، لتظهر الحاجة الماسة إلى طرق تدبير الخلاف، ونقله من دائرة الفوضى الكلامية إلى إطار الحوارات العلمية والتربوية البانية، فرأينا أن نشير إلى ضرورة التفقه بفقه الواقع. فالمفيد من الفقه ما روعي فيه مقتضى الواقع، كما أن البليغ من الخطاب ما روعي فيه مقتضى المقام، وبهذا نبتعد عن الجدالات اللفظية التي لا تنبني عليها الأحكام، ونجعل موضوع الخلاف مقصودًا بنوعه مرتبطا بواقعه.

٤- فقه الائتلاف

إذا كان الائتلاف يدور حول الاجتماع والاتحاد، والاختلافُ يومئ إلى التفرقة وعدم الاتفاق، فكيف نتصور الربط بين الاختلاف والائتلاف؟ نقول إن الائتلاف لا يتصور إلا عند الاختلاف، وإن هذين المعنيين من مفردات الحوار في الشريعة الإسلامية.

إن الخلاف المعتبر في السنن الإلهية هو ما كان وسيلة إلى البناء، وما كان كذلك فمن شأنه أن يكون مؤلفًا وموفقًا بين المختلفين، ومن هنا كان عنصر الائتلاف من مقاصد الاختلاف، فيختلف الناس ليأتلفوا، فما كان من الخلاف وسيلة إلى الائتلاف فهو محمود، وما كان منه ذريعة إلى الافتراق فهو مذموم، يصدق عليه قول الله ﷻ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾(آل عمران:١٠٣).

وبذلك يكون فقه الائتلاف من المحاور الأساسية التي يغفل عنها المختلفون في الدين. فإن الائتلاف لا يتأتى إلا عند التشبع بفقهه، وفقه الائتلاف هو منظومة من القواعد العلمية والتربوية الكفيلة بتدبير الاختلافات وتوجيهها نحو بيئة خلافية هادفة ومؤثرة، بعيدة عن الجدالات والنقاشات المنحرفة عن المنحى الأخلاقي الذي يصنع الجمال.

مجال الخلاف في الفكر الإسلامي مجال للبحث عن الحقائق الشرعية بترشيد الفكر وتوجيهه الوجهة الصائبة، وبذلك ينال المختلفون الأجر عند الله تعالى إذا صلحت نياتهم، فيكون الخلاف بذلك عبادة تصنع أرقى صور الجمال في التدين.

ويتمثل المضمون الفكري لفقه الاختلاف، في التحقق من القواعد العلمية والأدبية الكفيلة بنقل الخلاف من صورته المفرقة، إلى الائتلاف في صورته المؤلفة، ليتجلى مفهوم الاعتصام ويخمد عنصر الافتراق، امتثالاً للأمر والنهي في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾. ومن تلك القواعد المؤلفة؛ تحرير حقيقة الاختلاف، والبحث في طرق تضييقه وتوجيهه، والتمييز بين الأصول والفروع، وعدم الخوض فيما لا تنبني عليه فروع، والتحلي بقيم الإنصاف والموضوعية.. وغيرها من القواعد التي حررتها كتب الخلاف، كفيلة بصناعة الائتلاف، وتحقيق مقولة من قال: "نختلف لنأتلف".

كانت هذه ومضات جمالية مع حدود تربوية للخلاف العالي في الفكر الإسلامي، فالخلاف سنة إلهية، وكل سنة إلا ولها سنن تحميها وأخرى تؤدي إليها، وما كان الخلاف في الفقه عاليًا إلا لعلوِّ رسالته، وارتفاع منزلته، مما يضفي جمالية على مفردات الدين، وتظهر تجلياتها عند التحاور وعند الائتلاف، وبذلك نولي الخلاف وجهته الوظيفية ونصرفه عن مطامع الهوى، إلى مكامن المقصد الرسالي منه، والذي يرسم جماليته ويحقق غايته. ■

(*) كاتب وباحث مغربي.

د. محمد بن إبراهيم السعيدي*



شرط البشارة

كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ مليئان بما يدعو إلى الأمل، وترقب الفرج، والتفاؤل بكل ما هو قادم. فالله ﷻ أنزل على رسوله ﷺ سورة الشرح وهو والمسلمون في أشد الأحوال من الضنك، مما يحل بهم من أذى قريش وتضييقها، فقال سبحانه مخاطبًا رسوله الكريم ﷺ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾(الشرح:١-٦).

ويلاحَظ في هذه الآيات أن الله ﷻ قدَّم تذكير رسوله بالنعم التي تفضل بها عليه، ثم انتقل منها إلى البشارة باليسر بعد العسر. ولعل ذلك -والله أعلم- كي نستفيد من دلالة الاقتران بينهما أن النعمَ المصاحبة للشدائد داعيةٌ للعبد إلى ترقب الفرج من الله تعالى، وعدم اليأس والقنوط من رَوْحِه ﷻ.

وقد قال ابن عباس ﷺ في تفسير هذه الآية: "لن يغلب عسر يُسرين"؛ وهو يشير بذلك إلى كون "العسر" جاء مُعَرَّفًا بـ"أل" في الآيتين، وهذا يعني أن المُشار إليه في المرَّتين عسرٌ واحد ولا يعني تكررُ اللفظ هنا تكررَ معناه، كما جاء "اليسر" في الآيتين مُنكَّرًا غير مُعَرَّف وهذا يعني أن المشار إليه في الآيتين من "اليسر" متعدد وليس واحدًا. والفائدة التي ابتغى ابنُ عباس تقريرها، هي تعدد دواعي اليسر ومصاحبتها لكل ما يصيب العباد من عُسر، وأن هذه الدواعي هي الغالبة، وإليها المنتهى بإذن الله.

لكن سورة الشرح لا تتوقف ههنا، بل تختتم بأمرين عظيمين من الله ﷻ، الخطاب في سياقهما موجه للنبي محمد ﷺ، ولكن حكمهما منصرف إلى كل أمته تبعًا؛ فهي(الأمة) مكلَّفة به، لا سيما حين تكتنفها المصائب وتتطلب الفرجَ والنصرَ من ربها الذي يقول: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾(الشرح:٨)؛ أي إذا فرغت من صلاتك فاتعبْ في دعائه ومساءلته، مستصحبًا الرغبة والضراعة، فإن محافظة الأمة على صلاتها وكثرة ضراعتها إليه وحده، هما سبيل النجاة من ابتلائه.

وقد جاءت آيات غير هذه، خُوطِبت الأمة بها أصالة لا تبعًا: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(الأعراف:٥٥).

وهناك أيضًا أحاديث تدعو إلى الأمل والرجاء، منها قول الرسول ﷺ فيما رواه الترمذي وحسنه: "مَثَلُ أمتي مَثَلُ المطر لا يُدرى أولُه خيرٌ أم آخره"، وهذا الحديث لا يُعارض الثابت من تفضيل أهل القرون الثلاثة من حيث الجملة على من بعدهم، لكنه -كما يقول أهل العلم- يؤكد عدم انقطاع الخيرية عن هذه الأمة، وفي هذا بشارة عظيمة تدعو إلى استصحاب التفاؤل والرجاء.

وفي ذلك الحين الذي كان فيه المسلمون بـ"مكة" يقاسون ما يقاسونه من كفار قريش، نزل قوله تعالى يخبر أن من سُنَنِه الكونية هلاك المجرمين وبطلان كيدهم: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾(القمر:٤٣-٤٥).

يجب أن يبقى رجوع الأمة إلى ربها ومراجعتها دينها، العامل الأول في أسباب تغلبها على مصاعبها، ويجب أن لا يُنظر لهذا العامل على أنه واجب دعوي وحسب، فإن هذه النظرة، من الأسباب القوية في تأخر استجابة الأمة لمراد ربها منها ومن ثم تأخرها في تحقيق آمالها.

حراء

فإذا كان أعداء اليوم يُدْلُون باجتماع كلمتهم وامتلاكهم سُبُل الانتصار المادية كما كان من سبقهم من المجرمين يفعلون، فإن الله وعد بهزيمة الجمع وانتصار عباده المخلصين.

وهناك حديث عن المصطفى ﷺ يُساق دائمًا للدلالة على أحد أسرار ما فيه الأمة الإسلامية من ضعف وذل، لكنه يتضمن أيضًا بشارة تبعث الأمن والأمل، وذلك هو قوله ﷺ: "إذا تبايعتم بالعِينَة وأخذتم أَذْناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذُلاًّ لا يَنْزِعه حتى ترجعوا إلى دينكم" (رواه أبو داود)؛ والحديث جاء في مساق الإخبار، وكما أن ما ورد فيه من الذل المتسلط وقع على الأمة باقترافها أسباب وقوعه التي أخبر بها الحديث، فلا محالة أن انتزاع هذا الذل سوف يتحقق بإذن الله تعالى بتحقيق الأمة لأسبابه، وهي مراجعتها دينها. فهذا الرجوع إلى الدين واقع لا محالة، وكثيرًا ما يكون تقدير المصائب والبلاءات على الأمة لحكمةٍ لا يعلم حقيقتها إلا هو، لكن التدبر والتأمل فيها قد يوصلك إلى أن إلجاء الناس إلى ربهم هو من جملة تلك الحكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الأنعام:٤٢-٤٣).

فالأخذ بالبأساء رجاء أن تتضرع الأمم وترجع إلى ربها وتتخلى عما ابتليت به من معصيته، إنما هو من جملة سُنَنِه الكونية ﷻ، وكما قال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ

﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾(محمد:٣١).

ولا ريب أن العمل الدؤوب في الجوانب المادية من سياسية وصناعية وتقنية وزراعية واجتماعية لا يُشاحّ أحد في مسيس الحاجة إليها في بعث الآمال ومن ثم تحقيقها، لكن يجب أن يبقى رجوع الأمة إلى ربها ومراجعتها دينها العامل الأول في أسباب تغلبها على مصاعبها، ويجب أن لا يُنظر لهذا العامل على أنه واجب دعوي أو جهد مشايخي وحسب، فإن هذه النظرة -في تقديري- من الأسباب القوية في تأخر استجابة الأمة لمراد ربها منها ومن ثم تأخرها في تحقيق آمالها، بل الواجب أن يُجعَل هذا العامل قالبًا لجميع إستراتيجيات الإصلاح في جميع البلاد الإسلامية. فإن جميع مشاريع الإصلاح التي لا تدخل ضمن سياق إعادة الأمة لحقيقتها الدينية، سوف يكون الإصلاح الناتج عنها جزئيًّا لا يلبث أن يؤدي إلى مفاسد أكبر وأضر من التي كانت من قبل، هذا إذا لم يفشل قبل أن يتحقق منه أيّ أثر.

وعلى عكسه كل إصلاح مادي يوضع في سياق إعادة الأمة إلى التزامها الديني، فإن حظه من الانسجام مع تاريخ الأمة ودينها وآمالها، سيجعله بعيدًا عن إثارة المتناقضات التي هي غالبًا أساس فشل كل مشاريع الإصلاح في العالم. فإن المخططين الإستراتيجيين يعلمون بالتجربة أن سرَّ فشل مشاريع الإصلاح المتنوعة، هو ظهور تناقض بينها وبين بيآتها، ومشروع الأمة الذي يجب أن تقدمه للعالم، هو مشروع لا ينفصل فيه الهدف الأسمى للأمة وهو استعبادها لربها عن غايتها الأرضية، وهي الاستعمار في الأرض كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾(هود:٦١)؛ ففي الآية من اقتران الاستعمار في الأرض بالاستغفار والتوبة، ما يفضي التدبر فيه إلى تقرير كون الإصلاح الدنيوي يجب أن يكون ضمن السياق الصحيح لتعبيد الإنسان لله على هذه الأرض. ■

(*) أستاذ في أصول الفقه، جامعة أم القرى / المملكة العربية السعودية.

سعادة المستقبل وشقاؤه

دول وشعوب..
للتقنيات مَلاَّكة، وللتكنولوجيا صنَّاعة؛
مستقبلَ الإنسان هي تصوغه وتبنيه،
ليتها بالجد نفسه إلى إنسانها انتبهت،
وإلى قواه الْجَوّانية نظرت،
فروحَه حفّزت وقلبَه أيقظت،
فإنْ هي فعلت سعُدت وأسعدت،
وإنْ هي غفلت شقيت وأشْقَت.

***



خلف أحمد أبو زيد*





التخدير
مجهودات رائدة لأطباء مسلمين

كان للتقدم العلمي الذي حققه المسلمون في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، فضل كبير في تطور علم الطب الذي كان محدودًا بالتقاليد التي فرضتها الظروف آنذاك. فلم يكن التشريح مباحًا، وظل علماء التشريح ووظائف الأعضاء جامدين في القالب الذي صبَّهما فيه أبقراط وجالينوس، إلا أن المسلمين استطاعوا إحداث ثورة جديدة في علم الطب الذي ساروا به في مسارات جديدة، منها الملاحظة السريرية والأكلينيكية الدقيقة للمرضى، ووصف العلامات المرضية للأمراض، والتدريس إلى جانب أسِرَّة المرضى.. ولم تتوقف مجهودات الأطباء المسلمين عند هذه الحدود، بل سعوا إلى ابتكار واستحداث أساليب جديدة في علاج المرضى، بما استحدثوا من الآلات الجراحية البسيطة والدقيقة.

ونتوقف عبر هذه السطور مع علم من العلوم الطبية برع فيه المسلمون، واستخدموه كوسيلة هامة لإتقان العمليات الجراحية وتخفيف آلام المرضى، ألا وهو علم التخدير الذي كان للأطباء المسلمين فيه فضل كبير، الأمر الذي يدلنا دلالة واضحة على مدى عمق وأصالة الطب في الدولة الإسلامية.

علم الجراحة عند المسلمين

وقبل أن نتعرف على مجهودات الأطباء المسلمين في علم التخدير، نتوقف قليلاً مع مجهوداتهم في علم الجراحة، الذي كان لهم فيه باع طويل، حيث حفظت لنا كتب التراث الطبي المئات من العمليات الجراحية الناجحة لأطباء مسلمين، كان من أبرزهم أبو بكر الرازي الذي ترك بصمات رائدة في "جراحات العصب والعضل والوتر والأربطة، وفي خياطة البطن والمراق والأمعاء والقرحة، وفي جراحات الدماغ والخراجات الحادثة داخل الأذن، وفي قواعد علاج القروح الباطنة، ونزف الدم الناتج عن فسخ العروق أو فتحها.. وإن له وصفًا ممتازًا لعملية خياطة البطن في الجراحة الواقعة بالبطن والمراق والأمعاء"، والطبيب الأندلسي أبو القاسم الزهراوي، الذي يعد رائدًا من رواد الجراحة في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية، وكتابه التصريف وبخاصة "الجزء الثلاثون"، يعد مفخرة الجراحة والطب في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية؛ حيث تضمَّن سائر النواحي الجراحية المعروفة التي عرضها بأسلوب علمي فريد، بالإضافة إلى ما تضمَّنه الكتاب من صور وأشكال موضحة للجراحة والأدوات المستخدمة فيها. وقد قال عن هذا الكتاب العالم الفيزيولوجي الكبير هاللر: "كانت كتب أبو القاسم، المصدر الهام الذي استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر".

كما اشتهر الزهراوي بإجراء العديد من العمليات الجراحية، فقد كان أول من أشار إلى ربط الشرايين والجراحات الدقيقة، كما أجرى عمليات صعبة في شق القصبة الهوائية، واستئصال اللوز بسنارة، كما كان أيضًا أول جرَّاح استخدم الخيط الذي يسل من مصران الحيوان، ما نسميه الآن "Catgut" في خياطة الأمعاء، حيث كان الجراحون المسلمون أول من استخدم الأوتار الجلدية في تخييط الجروح بعد العمليات الجراحية.

كان المسلمون يشيدون للطب مقامًا رفيعًا، ويعتبرون الجراحة قسمًا منفردًا ومحترمًا، ويبحثون عن وسائل جديدة لتسكين آلام المرضى أثناء إجراء العمليات الجراحية كان من أبرزها استخدام التخدير.



ريادة المسلمين في علم التخدير

لقد دفع الألمُ الإنسانَ من قديم الزمان، إلى البحث عن طرق في التركين والتسكين تساعده في العمليات الجراحية، وتسكين الأوجاع. وكانت البدايات مقتصرة على المستحضرات العشبية التي تعطى عن طريق الفم أو عن طريق الشرج، لتسكين الألم الناتج عن الأمراض، أو حتى في إطار معالجة الألم الناتج عن الجراحة.

وبالعودة لتاريخ الجراحة عند الأطباء العرب والمسلمين، نجد أنهم كانوا من أوائل الذين عملوا على تخفيف آلام المرضى؛ فقد استعملوا المهدِّئات والمركَّبات المزيلة للألم قبل إجراء العملية الجراحية، وقد ذكر الرازي في كتابه "الحاوي"، كيف يتم استعمال عصارة البنج في تسكين ألم العين، كما أدرك أن للمهدئات دورًا في تخفيف وطي الطنين على صاحبه وهو ما توصل إليه العلم في عصرنا، وذكر أنه إذا لم تنفع الأدوية التي تقطع وتلطف، فيعالج المريض بما يخدر الحس قليلاً كالبنج والأفيون.

ويصف ابن سينا في كتابه "القانون" في الجزء الثاني منه، تسكين الآلام بقوله: "جملة ما يسكن الوجع، إما مبدل المزاج وإما محلل المادة وإما مخدر، والتخدير



يزيل الوجع؛ لأنه يذهب بحس العضو، وإنما يذهب بحسه لأحد سببين، إما بفرط التبريد، وإما بسمية فيه مضادة لقوة ذلك العضو".

أما ابن البيطار، فقد تحدث في نهاية كتاب "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" عن الكثير من أدوية التسكين والتخدير، وبشكل خاص نبات البنج الذي أفاض في ذكره، بما يمتلكه من فوائد كبيرة في تسكين الأوجاع والآلام المختلفة، وطريقة استعماله في ذلك.

وكذلك الطبيب عمر بن يوسف بن عمر بن رسول الغساني التركماني المتوفى سنة ٦٩٦هـ، صاحب كتاب "المعتمد في الأدوية المفردة"، والذى أفرد فصلاً فيه عن تسكين الأوجاع عن طريق نبات اليبروح، وذكر أنه يستعمل "لمن أراد أن يبطل حس عضو، إن احتاج إلى قطعه أو احتاج إلى الكي".

والطبيب وعالم التخدير ابن القف الذي أفرد في كتابه "العمدة في الجراحة" فصلاً كاملاً للحديث عن تسكين الألم، وفرَّق بين التسكين الحقيقي وغير الحقيقي، وذكر أن التسكين الحقيقي هو علاج سبب العلة وإبراء المريض، والتسكين غير الحقيقي هو إعطاء المخدر لإحداث التسكين المؤقت أو قبل العملية الجراحية، لتمكين الجرائحى من العلاج". وقد أورد ابن القف في كتابه، ثلاثة أسماء من النباتات التي تستعمل في التخدير؛ وهي الأفيون واللقاح والبنج.

استعمال التخدير الإنشاقي

ولم تتوقف مجهودات الأطباء المسلمين في تخفيف آلام المرضى أثناء إجراء العمليات الجراحية بحدود استعمال المركبات المزيلة للألم والمهدئات، بل سعوا إلى اختراع ما عرف بـ"التخدير الإنشاقي" لممارسة العملية، وذلك باستعمال ما عُرف حينها بـ"الإسفنجة المرقدة" عن طريق استخدام نباتات القنب الهندي، وفقاعات الأفيون، والخشخاش الشويكران، والبنج، وست الحسن، حيث كان يتم حل هذه النباتات مع بعضها ليتشكل منها محلول وسائل مخدر، حيث يؤتى بقطعة إسفنجية تغمس في المحلول الناتج المذكور، لتتشرب السائل المخدر المعد مسبقًا، ويوضع على وجه المريض ليَغُطَّ في النوم، ويبدأ معه الجرَّاح بإنجاز عمله كشكل من أشكال التخدير الإنشاقي"، الذي يعتبر القاعدة الأساسية التي بني عليها علم التخدير في العصر الحديث.

الإفراط في التخدير

لم يكن استعمال المخدر أمرًا مشاعًا عند الأطباء المسلمين، بل نجد أنهم وضعوا له ضوابط، من أهمها أنه لا يستعمل إلا عند الضرورة القصوى. فنجد أن الجراح والطبيب ابن القف، يحذِّر من استعمال المخدر، وأن استعماله يجب أن يكون للضرورة القصوى فيقول: "إنه (أى المخدر) وإن كان يحصل به التسكين للوجع، يضعف القوة، ويجمد المادة الموجعة، ويثبتها بالعضو، ولذلك يجب على الجرَّاح، أن لا يقدم على استعماله إلا عند أمر عظيم". وأيضًا ابن سينا يحث على معرفة تأثيره ومقداره بقوله: "ومع ذلك فيجب أن ننظر في تركيب المخدر وكيفيته، وتستعمل أسهله، وتستعمل مركبه مع ترياقاته إلا أن يكون الأمر عظيمًا جدًا فتحتاج إلى تخدير قوي".

التفاعلات الكيميائية في صنع التخدير

تقول كتب المدرسة الغربية في علم التخدير الحديث،



إن التخدير لم يبدأ إلا مع اكتشاف مادة الأيتر عام ١٨٤٢م، وإن المجتمع البشري مدين بإدخال طرق التخدير الحديثة إلى مجال الممارسة الطبية، إلى كل من مورتون ويلز وسيمبسون، ولكن الصحيح أن الأطباء والعلماء المسلمين، قد استخدموا التفاعلات الكيميائية في صنع التخدير، وتوصلوا إلى هذه المادة قبل عالم الغرب بقرون؛ فعلى سبيل المثال نجد أبا بكر الرازي، له الفضل في اكتشاف حمض الكبريت، وأسماه حينها "زيت أتراح"، ونجد العالم والفيلسوف الكندي استقطر الغول أو الكحول. ونعلم اليوم أن مستحضر الأيتر الذي كان له الريادة في اكتشاف التخدير عمليًا في منتصف القرن التاسع عشر، ينتج عن تفاعل الغول بحمض الكبريت. ومن هنا يكون المسلمون من أوائل من توصلوا لوضع أسس تركيب مادة الأيتر المخدرة قبل علماء الغرب بعصور.

اعتراف بالفضل

وإذا كنا نذكر فضل المسلمين على هذا العلم الذي استفادت منه الحضارات الأخرى إفادة كبيرة في تطور علم التخدير الحديث الذي يعد عصب نجاح العمليات الجراحية، فها هي واحدة من أعلام الغرب تعترف بذلك الفضل؛ إنها الكاتبة والعالمة الألمانية الشهيرة "زيجريد هونكه"، حيث تقول في كتابها "فضل العرب على أوروبا": "كذلك من الأشياء الأصيلة وذات فضل عظيم على الإنسانية، طريقة العرب في التخدير، وهم يختلفون فيها عن الهنود واليونان والرومان الذين كانوا يُسكِرون المريض، أما الطريقة العربية في تخدير المريض فهي ليست في العمل على تخديره لتخفيف الآلام فقط، بل تسهيلاً للجرّاح للقيام بعمليته الجراحية دون أن يشعر المريض بألم، أعني استخدام التخدير الشامل لكل الجسم. أما طريقة إجرائه؛ فتغمس قطعة من الإسفنج في عصير مادة الحشيش ومستخرج زهرة البسلة ونبات السكران، ومن ثم تجفف قطعة الإسفنج في الشمس (وفي ترجمة أخرى، عصير الحشيش مع الأفيون والزؤان وست الحسن)، وعند استخدامها تطرى وتوضع في أنف المريض عند إجراء العملية، فيمتص المخاط السائل ولا يلبث أن يَغُطَّ في النوم ولا يشعر بآلام العملية الجراحية. واستعملوا التخدير في آلام المعدة لعملياتها وعمليات البواسير وعمليات المثانة والقسطرة، واستخراج الحصى من المثانة والحالب وعمليات الأمعاء". ■

(*) كاتب وباحث مصري.

المراجع

(١) في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية، الدكتور عامر النجار، دار المعارف بمصر.

(٢) تاريخ العلوم عند العرب، قدري حافظ طوقان، مكتبة مصر.

(٣) التخدير في الحضارة العربية الإسلامية، إعداد الدكتور عبد الناصر كعدان، والدكتور أشرف العاصي، نسخة الكترونية.

(٤) ومن البنج ما قتل، الدكتور نبيل سليم، مجلة الشاهد قبرص، العدد: ٧٩ (مارس ١٩٩٢م).



أديب إبراهيم الدباغ*

الجمال والخلود في رسائل النور

في أكثر من مكان من رسائل النور، يشير "النورسي" إلى أن النفس الإنسانية، هي عبارة عن مجموعة كبيرة من اللطائف والنوازع الفطرية المختلفة، وأن هذه اللطائف والنوازع تبقى في ظمأ شديد، وفي اشتياق أبدي إلى ما يُروي ظمأها ويُشبع جوعتها، لكُلٍّ منها رِيُّها وَقُوتُها الخاصان بها، فما يروي العقل غير ما يروي الروح، وما يروي الحسَّ غير ما يروي الشعور، وما يشبع خيال الروح غير ما يشبع خيالات البدن، ونزوع النفس الحرَّة إلى المغيبات في حاجة إلى رواء غير الرواء الذي تحتاجه النفوس الحبيسة في قمقم أجسادها. ولكي يتهيأ لنا أن نستقي من ينابيع القرآن جميعًا، علينا أن نقبل عليه بِجَمع كياننا، وبجميع لطائفنا، وبكل نوازعنا.. ومن هنا عاب علماؤنا على بعض الفِرَق الإسلامية إتيانها القرآن من

إن الجمال يحبُّ أن يَشْهد نَفْسَه في مراياه ومرايا الآخرين، ويَودُّ أن يكون موضع إعجاب واستحسان غيره، ولمّا كان الجمال الإلهي سرمدًا وخالدًا وأبديًّا، فهو يقتضي خلود أولئك المشتاقين وديمومتهم. فمنح الخلود للمؤمنين المشتاقين للجمال الإلهي، هو من مقتضيات أبدية هذا الجمال وسرمديته.

بعض منافذ النفس دون بعض.

والنفس السليمة تنجذب بفطرتها إلى الجمال والجميل، وكل جمال وجميل يوقظ حينًا ويأخذ بمجامع قلوبنا لسبب وحيد وذلك لظهوره بمظهر من ينطوي على قوىً هي أعظم من جرمه، وأعمق وأوسع مما يبدو على ملامح شكله، وأن فيه لمحة من ملامح الخلود تضيء قلوبنا، وتصعق أرواحنا. فالجمال الإلهي الذي يندُّ عن أي شكل، لا يلبث أن يأخذ أشكالاً عديدة ويتصور بصور مختلفة حين يهبط الأرض وينزل منها منازله.

والنورسي يرى "أن كلاًّ منا هو مرآة كبيرة واسعة"، قابلة لاستقبال الصور التي يبثها الكون والحياة من حولنا، وإننا لننفعل بما تنقله إلينا هذه الصور من رسائل، ونسعى إلى فهمها والكشف عما ترمز إليه من المعاني والأفكار، وما تنطوي عليه من أسرار الحسن والجمال ومن حيث كوننا مرايا يظلُّ الواحد منا يتلقى طوال حياته سيولاً هائلة متتابعة لا تتوقف من الصور، وتزدحم بها ذاكرته وينتخم بها عقله.

ولضعفٍ في قوة الإبصار، وصدإٍ مزمن في المرآة، وكلال في الذهن على استبانة حقائق الأشياء، يتلقى الإنسان المنكود الصور الهابطة عليه من سماء الحق مشوشةً ومشوهةً، لا يتبين حقيقتها ولا يدرك رمزها، ومن هنا تنشأ الانحرافات وتتجذر الكفريات، ويكبر الجحود ويتفاقم الإنكار، وتصبح الماهية الإنسانية التي هي في الأصل "مرآة جامعة للأسماء الحسنى كلها" كما -يقول النورسي- عدسةً مشتتةً لهذه الأسماء، وطامسة لأنوارها وجلواتها في مرايا الموجودات.

والمرآيا العاكسة تعكس كُلُّ واحدة منها -بحسب حجمها وعلى قدر صقالتها وشدة نقائها- بعضًا من أنوار تجليات الأسماء الإلهية الحسنى. فإن هذه المرآيا إذا ما نُظِرَ إليها بمنظار "التوحيد" عُرِف أن مصدر نورها واحد، ومنبعه واحد، فيجتمع بهذا النظر شتاتها، وتتوحد أجزاؤها، ويلتحم بعضها ببعض، وتصير -بسرِّ التوحيد- مرآة واحدة كبرى تعكس وحدة النور وأحدية المُنوِّر.

والوحدة والتوحيد سنة كونية تدفع بالأشياء من الجزئية إلى الكلية، ومن الشتيت المتفرق إلى الواحد المتجمع، وتسعى إلى رتق ما يتفتَّق وتركيب ما يتفكك، حتى إن القرآن الكريم يشير إلى هذه السنة الكونية الإلهية فيقول: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(لقمان:٢٨)، ويقول: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾(المائدة:٣٢).

فالبشرية بأجيالها المتعاقبة منذ آدم ﷺ وإلى أن تقوم الساعة، مختزلة في أي فرد من أفرادها، فَقَتْل هذا الفرد من غير وجه حق كأنه قَتْل البشرية بأسرها، وإحياؤه -أي مساعدته على حفظ حياته- كأنه إحياء للبشرية كلها، وهذا الفرد وسرّ كينونته منطوٍ في أصغر خلاياه، كما أن أعظم طاقات الكون مخفية في الذرة الواحدة من ذراته.

يقول النورسي في هذا المعنى: "نعم، إن ثمرة واحدة وزهرة واحدة وضياءً واحدًا، كُلٌّ منها يعكس كالمرآة الصغيرة رزقًا بسيطًا ونعمة جزئية وإحسانًا بسيطًا، ولكن بسرِّ التوحيد تتكاتف تلك المرايا الصغيرة مع مثيلاتها مباشرة، ويتصل بعضها بالبعض الآخر، حتى يصبح ذلك النوع مرآة واسعة كبيرة جدًا تعكس ضربًا من جمال إلهي يتجلّى تجليًا خاصًّا بذلك النوع، فيظهر سرُّ التوحيد حسنًا سرمديًّا باقيًا من خلال ذلك الجمال الفاني الموقت، بمعنى أن ذلك الشيء الجزئي يتحول بسرِّ التوحيد، إلى مرآة للجمال الإلهي".

وفي النافذة السادسة والعشرين من رسالة "النوافذ" يقول النورسي: "إن أنواع الجمال الزاهر، وأشكال الحسن الباهر، التي تتلألأ على وجوه الكائنات السريعة الأفول، ثم تتابع هذا الجمال وتجدده بتجدد الكائنات

واستمراره باستمرار تعاقبها، إنما يُظهر أنها ظل من ظلال تجليات جمال سرمدي لا يحول ولا يزول.. تمامًا كما أن تلألأ الحباب على وجه الماء الرقراق، وتتابع هذا اللمعان في تتابع الحباب، يدل على أن الحباب والزبد والتموجات التي تطفو على سطح الماء إنما تمثل مرايا عاكسة لأشعة شمس باقية.

فتلمّع أنواع الجمال أيضًا على الموجودات السيالة في نهر الزمان الجاري، يشير إلى جمال سرمدي خالد، ويدل على أن تلك الموجودات إنما تمثل إشارات وعلامات على ذلك الجمال، ثم إن ما يخفق به قلب الكون من حُبٍّ جادٍّ وعشق صادق، يدل على معشوق دائم باق. إذْ كما لا يظهر شيء في الثمرة ما لم يوجد في الشجرة نفسها، فكذلك العشق الإلهي العذب الذي يستحوذ على قلب الإنسان -وهو ثمرة الكون- يبين أن عشقًا خالصًا ومحبة صادقة بأشكال شتى مغروزة في كيان الكون كله، وتتظاهر بأشكال شتى.. هذا الحب المالك قلب الكون، يفصح عن محبوب خالد سرمدي".

فما دام أن الكون شجرة -كما يراه النورسي- والإنسان ثمرة هذه الشجرة، والثمرة لا يمكن أن تحمل من الخصائص والصفات ما لا تحمله الشجرة ذاتها، ولما كان الإنسان يحسُّ في حالة صحو الروح وصفاء القلب بوجد وتوق متدفق نحو خالقه وموجده، لذا فإن الكون -الذي هو شجرة الإنسان- لا بد وأن يحمل نفس ما تحمله ثمرته "الإنسان" من مثل هذا الوجد والتوق إلى الخالق العظيم ذي الجلال والجمال.

ويسير النورسي موغلاً في عمق هذه المعاني حيث يقول: "ثم إن ما تمور به قلوب اليقظين الراشدين من أصفياء الناس، وما يشعرون به من انجذاب، وما يؤرقهم من وَجْدٍ، وما يحسون به من جذبات، وما تتدفق به صدورهم من توق وحنين، إنما يدل على أن حنايا ضلوع الكون تعاني ما يعاني الإنسان، وتكاد تتمزق من شدة إنجذابها وعظيم جذباتها التي تتظاهر بصور متنوعة، وهذا الجذب لا ينشأ إلا من جاذب حقيقي وجاذبية باقية أبدية" إلى أن يقول: "ثم إن قلم التجميل والتحسين الذي يبدع نقوشه في وجه الكائنات، يدل بوضوح على جمال أسماء مالك ذلك العليم المبدع.

ما دام أن الكون شجرة والإنسان ثمرة هذه الشجرة، ولما كان الإنسان يحسُّ في حالة صحو الروح وصفاء القلب بوجد وتوق متدفق نحو خالقه وموجده، لذا فإن الكون لا بد وأن يحمل نفس ما تحمله ثمرته "الإنسان" من مثل هذا الوجد والتوق إلى الخالق العظيم ذي الجلال والجمال.

وهكذا فالجمال الذي يشع من وجه الكون
والعشق الذي يخفق به قلبه
والانجذاب الذي يمتلئ به صدره
والكشف والشهود الذي تبصره عينه
والروعة والإبداع في مجموع الكون كلِّه..

كل ذلك يفتح نافذة لطيفة جدًّا، ونورانية ساطعة أمام العقول والقلوب اليقظة يتجلى منها ذلك الجميل ذو الجلال الذي له الأسماء الحسنى، وذلك المحبوب الباقي والمعبود الأزلي".

إن شيئًا ما ينحدر إلينا من منابع الأبدية عندما نروح في استبحار فكري وروحي في الأمداء المهولة البعد من محيطات النفس والوجدان، وهذا يعني أن "الخلود" مُجَوْهَر في مناجم الروح، وأن بذرة "الأبدية" منطوية في وجدان كل إنسان.

والنورسي يرصد هذه الظاهرة ويقدم لنا التفسير الآتي: "إن هذه الأشياء لم تخلق للفناء بل للبقاء، بل إن فناءها الظاهري ليس إلا إطلاقًا لسراحها بعد أن أنهت مهامها، وكما أن الشيء يفنى من جهة، إلا أنه يبقى من جهات كثيرة:

تأمل هذه الزهرة وهي كلمة من كلمات القدرة الإلهية، إنها تنظر إلينا مبتسمة لفترة قصيرة ثم تختفي وراء ستار الفناء، فهي كالكلمة التي تتفوه بها، والتي تودع آلافًا من مثيلاتها في الآذان، وتبقى معانيها بعدد العقول المنصتة لها، وتمضي بعد أن أدَّتْ وظيفتها وهي إفادة المعنى.

فالزهرة أيضًا ترحل بعد أن تودع في بذيراتها ماهيتها المعنوية، فكأن كلَّ ذاكرة وكلَّ بذرة بمثابة صور

التراب حياة وإحياء، ومن هنا كان المؤمن أقرب ما يكون إلى الله وهو ساجد، لأنه أقرب ما يكون إلى التراب الذي تتجلّى فيه أسماؤه الحسنى، حتى كره بعض الفقهاء السجود على ما يحجب جبهة الساجد عن الأرض.

فوتوغرافية لحفظ جمالها وصورتها وزينتها، ومحل إدامة بقائها. فلئن كان المصنوع -وهو في أدنى مراتب الحياة- يعامَلُ مثل هذه المعاملة للبقاء، فما بالك بالإنسان -الذي هو في أسمى طبقات الحياة- الذي يملك روحًا باقية، ألا يكون مرتبطًا بالبقاء والخلود؟!".

والرغبة في الخلود والدوام هي حافز أعظم الأعمال الفكرية والوجدانية. فآمال الإنسان وأشواقه وأحلامه وخياله وفكره وآدابه وفلسفاته، وما قاله من حِكم وتغنَّى به من شعر، إنما هو تعبير عن نفس الهاجس، ولو لم يتوهم لمحة من لمحات الخلود في أعماله الفكرية والإبداعية وبناه الحضارية، لما كلَّف نَفْسَه عناء التفكير ومشقة الإبداع، ولو لم يتوهم بعضًا من علامات الخلود والدوام فيما يحبُّ ويهوى لما أحبَّ ولما هَوِي، ولما التذَّ بعمل أو سُرَّ بشيءٍ من أعماله كما يشير إلى ذلك النورسي.

فالزمان الدنيوي المحدود، عاجز عن المضي مع الإنسان إلى آخر الشوط في خياله الذي لا حدود له، ومع أشواقه التي لا نهاية لها. فلا بد من زمن أخروي لا حدود له تصبُّ فيه الأزمنة كلُّها بخيرها وشرِّها، وتصبُّ فيه آمال الإنسان وأحلامه وأشواقه بخيرها وشرِّها، وتطويها دفاتر الأبد وسجلاته.

يقول النورسي: "لو قيل لقدرة التخيل في الإنسان، وهي إحدى وسائل العقل وأحد مصوريه، سَتُمْنَح لكِ سلطنةُ الدنيا وزينتها مع عمُر مديد يزيد على مليون سنة، ولكن مصيركِ إلى الفناء والعدم حتمًا، نراها تتأوه وتتحسَّر، أيْ إن أعظم فانٍ -وهو الدنيا وما فيها- لا يمكنه أن يشبع أصغر آلةٍ في الإنسان وهي الخيال.

يظهر من هذا جليًّا أن هذا الإنسان الذي له الاستعداد الفطري، والذي له آمال تمتدُّ إلى الأبد، ورغبات تنتشر في ثنايا أنواع السعادة الأبدية.. هذا الإنسان إنما خلق للأبد وسيرحل إليه حتمًا، فليست هذه الدنيا إلا مستضافًا مؤقتًا، وصالة انتظار الآخرة".

وحبُّ الجمال والانتشاء بمشاهدته، والاقتراب منه ومحاولة امتلاكه، والاستحواذ عليه بالفكر والحسّ والخيال، هو قضية معروفة ومشاهدة في الإنسان، حيث يمتطي خياله، ويظلُّ سابحًا في ملكوت الجمال، يجوس خلاله، ويطوف بين أمدائه وهو يلاحق مغيبات الحسن في خبايا الكون والحياة والإنسان، مدفوعًا إلى ذلك بنازع فطري وبحافزٍ روحي، يَوَدُّ لو يشرب جمال العالم كله ويطويه في حشاشته.

غير أن هذا "الخيال" وهو يبحث عن لمحات الجمال، ويلاحقها في كل مكان يقودنا إلى تيهٍ يباب، ويقف بنا في منتصف الطريق مُنْبَتّينَ هالكين؛ لأنه يبحث عن جمال مجازي ويلاحق حسنًا فانيًا زائلاً، بينما هو مرصود لكي يتلمس لمعات الحسن الحقيقي، ويبحث عن أنوار جمال سرمدي لا يفنى ولا يزول، لذلك فسيظَلُّ جائعًا لا يشبع وظامئًا لا يروي، لأن كلَّ جمال يلتقيه إنما هو جمال نسبي محدود فانٍ، وفوقه جمال هو تجلٍّ من تجليات نوره، كتجلي نور الشمس -ولا مشاحة في المثال- على المرايا وقطرات الماء وحباب البحر، هو ليس بالشمس ولا بعض منها، ولكنه بسرِّ النورانية والشفافية، يدخل كلَّ شيء من غير أن يحتويه شيء، ويقرب من كل شيء بينما هو بعيد عن كل شيء كما يشير إلى ذلك النورسي رحمه الله.

ومعلوم بداهةً أن الجمال -أيَّ جمال- يحبُّ أن يَشْهَد نَفْسَه في مراياه ومرايا الآخرين، ويَودُّ أن يكون موضع إعجاب واستحسان غيره. ولمَّا كان الجمال الإلهي سرمدًا وخالدًا وأبديًّا، فهو يقتضي خلود أولئك المشتاقين وديمومتهم. فمنح الخلود للمؤمنين المشتاقين للجمال الإلهي، هو من مقتضيات أبدية هذا الجمال وسرمديته كما يقول النورسي: "ولمّا كان الجمال والحسن خالدين سرمديين، فإنهما يقتضيان خلود المشتاقين وديمومتهم، لأن الجمال الدائم لا يرضى بالمشتاق الزائل".

فالإنسان رهين الخلود، محكوم به عليه، مذهوب به إليه، سواء استسلم لقضاء الله فيه أم تمرد عليه، وسواء

آمن واتَّقى أم جحد وكفر، فكما جاء إلى الدنيا بغير إرادته، فإنه مغادرها كذلك إلى الآخرة بغير إرادته، فلا فكاك له عنها، ولا مصرف له إلا إليها، لأنها موصولة به بحبال منسوجة من خيوط روحه، فهو مشدود إليها، وهي مشدودة إليه، ولا خلاص لأحدهما من الآخر.

إن "وجود الإنسان" موجود في علم الله تعالى قبل أن يمنحه إياه ويُتَوِّجه بالروح والحياة، ولأن علم الله تعالى أزلي وأبدي، فمن البديهي أن يكتسب هذا الوجود ظلاًّ من ظلال الدوام والبقاء، وهو بهذا الانتساب الإلهي لا يمكن أن يتفكك أو يمضي لأي سبب من الأسباب في طريق "التلاشي" والوصول إلى نقطة "اللاّوجود" والانحدار نحو العدم.

فـ"وجود الإنسان" ابتداءً إنما هو خروج من دائرة "العلم" إلى دائرة "القدرة"، ووجوده انتهاءً هو خروج من دائرة "القدرة" إلى دائرة "العلم"، ثم العودة مرةً أخرى إلى دائرة "القدرة" للحساب والثواب والعقاب، وهو في هذه الحالات جميعها موجود غير معدوم. فهو -أي الإنسان- إما أن يكون موجودًا في "علم الله"، أو موجودًا في "قدرة الله" ولا في شيء غيرهما.

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾(القصص:٨٨) يقول النورسي: "ثم إن العدم المطلق لا وجود له أصلاً لوجود "العلم المحيط"، علمًا أنه لا شيء خارج عن دائرة العلم الإلهي كي يمضي إليه شيء ما، والعدم الموجود ضمن دائرة "العلم" هو عدم خارجي، وهو عنوان صار ستارًا على الوجود العلمي، حتى حدا ببعض العلماء المحققين التعبير عن هذه الموجودات العلمية بأنها "أعيانٌ ثابتة"، لذا فالذهابِ إلى الفناء، هو نزع الأشياء لألبستها الخارجية مؤقتًا، ودخولها في وجود معنوي وعلمي، أي إن "الهالكات والفانيات" تترك الوجود الخارجي وتلبس ماهياتُها وجودًا معنويًّا، وتخرج من دائرة "القدرة" وتدخل في دائرة "العلم".

والكافر -كما يحكي عنه القرآن- حين يرى العذاب المنصبّ عليه في نار جهنم، يهتف صارخًا: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾(النبأ:٤٠)، متوهمًا أن التراب مواتٌ لا يُحسُّ بالعذاب. بينما الأرض -ومنها التراب- هي مظاهر

إن تلمّع أنواع الجمال على الموجودات السيالة في نهر الزمان الجاري، يشير إلى جمال سرمدي خالد، ويدل على أن تلك الموجودات إنما تمثل إشارات وعلامات على ذلك الجمال، ثم إن ما يخفق به قلب الكون من حبٍّ جادٍّ وعشق صادق، يدل على معشوق دائم باق.

قدرته تعالى ورحمته وإحسانه، فحفنة من تراب يمكن أن يُسْتَنْبَت فيها كلُّ أزهار العالم وأشجاره على اختلاف أنواعها وألوانها وطعومها، كما يقول النورسي:

"فالتراب حياة وإحياء، ومن هنا كان المؤمن أقرب ما يكون إلى الله وهو ساجد كما جاء في الحديث الشريف، لأنه أقرب ما يكون إلى التراب الذي تتجلّى فيه أسماؤه الحسنى، حتى كره بعض الفقهاء السجود على ما يحجب جبهة الساجد عن الأرض.

فالتراب فيه خاصية إحياء كالماء، لذا فهو يقوم مقامه في الوضوء والطهارة حين يَعِزُّ الماء أو يختفي. فالتراب الذي يتمنّى الكافر أن يكونه ليس عدمًا ينجيه من العذاب كما يتوهم، فلا خلاص له مهما صار إليه من أشياء، أو تحول إليه من أحوال، لأنه مسجون الوجود، ولا عدم يمكن أنْ يتلاشى فيه، أو يذوب في قعره ليخرج من شيئيته الإنسانية، ويتخلص من مسؤولية فكره وعقيدته. فالله تعالى من حيث ربوبيته "قد جعل سبحانه المخلوقات الأرضية عروشًا له، إذ جعل الهواء نوعًا من عرش لأمره وإرادته، وعنصر النور عرشًا آخر لعلمه وحكمته، والماء عرشًا آخر لإحسانه ورحمته، والتراب نوعًا من عرش لحفظه وإحيائه". ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

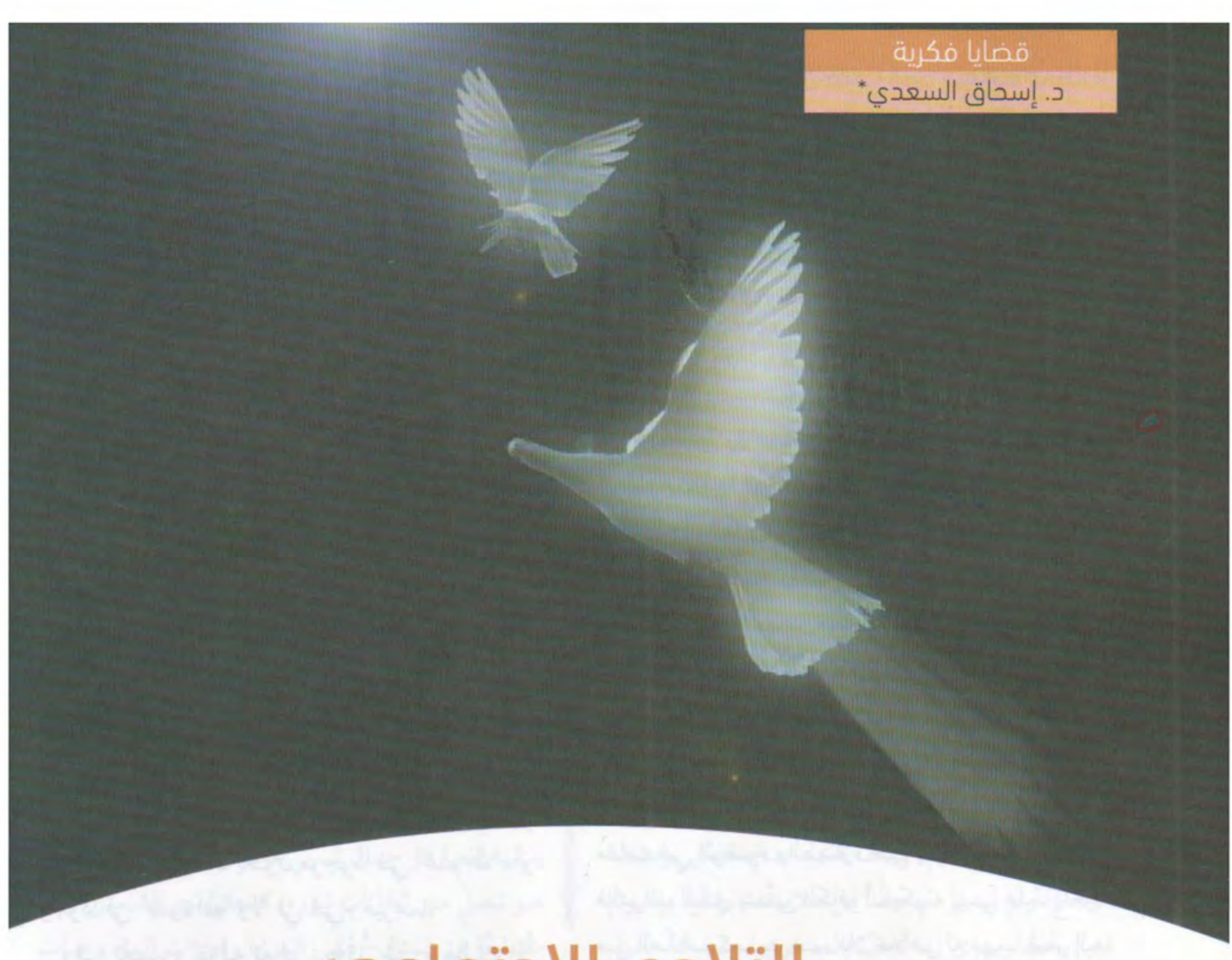
المراجع

(١) كليات رسائل النور، لبديع الزمان سعيد النورسي، الكلمات، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

(٢) كليات رسائل النور، لبديع الزمان سعيد النورسي، الشعاعات، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

(٣) كليات رسائل النور، لبديع الزمان سعيد النورسي، المكتوبات، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

د. إسحاق السعدي*



التلاحم الاجتماعي
مقومات ومحصِّنات

شرع الإسلام مبدأ الأخوَّة في الدين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(الحجرات:١٠)، وانتهج في تقريرها وبنائها منهجًا تربويًّا فريدًا يرتكز على عقيدة التوحيد الصحيحة الأصيلة، وما يندرج تحتها من مبادئ وقيم تضبط الفكر ورؤية الكون والحياة في ضوء العبودية الخالصة لله ﷻ، وما ينجم عنها من آثار إيجابية تنعكس على سلوك الفرد وتماسك الأمة، إلى جانب نظم الإسلام الشرعية وأخلاقياته السامية، التي أَوْلت الأخوَّة ووحدة الأمة عناية فائقة؛ بالأمر بها والحث عليها، وترسيخها في سلوك الفرد وبناء الأمة، ونبذ ما يمسها بسوءٍ أو يُصدِّع بنيانها أو يضعف تأثيرها من الاعتداد بالروابط المنافية لها، أو المواقف التي تجافيها، والأخلاق التي تصادمها.

آصرة العقيدة

أول ما انتهج الإسلام في تقرير مبدأ الأخوة ووحدة الأمة، أن جعل العقيدة

هي الآصرة الأهم والمرتكز الأساس لتلك الأخوَّة دون غيرها من الأواصر الأخرى، كآصرة النسب أو القبيلة أو اللغة أو التاريخ أو المناهج المتنوعة، والمصالح المختلفة، مع أن الإسلام لا ينكر تلك الأواصر ولا يلغيها ما دامت في مسلكها الفطري السليم، بل يعتني بها وما تستوجب من صلة الرحم، وحقوق القرابة والجوار، ومحبة الأوطان وكرامة الإنسان من حيث هو إنسان، وما تفرض تلك الكرامة من حقوق وواجبات وأخلاقيات وتواصل وتواد وتراحم وتعاون، وتضامن على البر والتقوى والعدل والإحسان.. ونحو ذلك من مكارم الأخلاق ومحاسن الخلال، وإذا كان قد ركَّز على آصرة العقيدة، والرابطة القائمة على أساسها، فهو إنما فعل ذلك لكونها "أخوَّة مستمدة من عناصر روحية لا تدانيها في التقارب أيُّ علاقة أخرى"، أمَّا لو اجتمعت الآصرتان معًا، فإن ذلك سيكون أبعد أثرًا وأعمق في التقارب؛ والإسلام يقر ذلك ولا ينكره. ولعل في سؤال نبي الله موسى ربَّه أن يَشُدَّ عضده بأخيه هارون -عليهما السلام- ما يؤكد هذا. بل إن الإسلام حينما وصف رابطة العقيدة بوصف الأخوَّة إنما فعل ذلك إقرارًا بمكانتها الغريزية، وما تقتضيه من العصبية والحميَّة من الأخ لأخيه في الدم والنسب، ولكنه أراد أن تكون تلك الرابطة مشدودة بعقيدة الإسلام وشريعته في المقام الأول، لأن "أخوَّة الإيمان أوثق روابط النفوس، وأمتن عرى القلوب، وأسمى صلات العقول والأرواح"؛ لتأسيسها على عقيدة التوحيد الخالص لله، التي "هي ملاك ذلك كله، لأنها هي التي تزود القلوب برصيد الحب الخالص، وروح الأخوَّة الصادقة، وتسل من النفوس ما يعلق بها من أوضار الحقد، وتطهرها من شوائب التنافر، وتصوغ الإنسانية صياغة فريدة، قوامها التناصح والتآزر، وجوهرها الإخلاص والوفاء، بحيث يحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه، ويسعى لخيره وما يصلح شأنه سعيه لذاته وصلاح أمره".

فيروسات مدمّرة

أمَّا إذا ارتكزت الأخوَّة على عصبية النسب، والحمية الضيقة -جنسية كانت أم إقليمية- فإنها تكون "وليدة نزعات خاصة لا تعرف غير الجنس أو الإقليم، ولا تمت في أكثر أحوالها إلى القلب ولا إلى الصالح العام، وبها يذوي الضمير العالمي وتنكمش الروح الإنسانية، وينسى الرحم العام الذي يقضي بالتعاون العام والسلام العام، ويقضي بالحدب الشديد على المصالح العامة، ثم تجعل من أفراد الإنسان أو جماعاته حيوانات غابيَّة مفترسة، يفتك قويها بضعيفها، ويأكل كبيرها صغيرها".

لقد تميزت الأمة الإسلامية بأنها تقوم على مبدأ الأخوَّة ووحدة الأمة، الذي أعلنه رسول الهدى ﷺ بقوله: "أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى" (رواه مسلم).

إن هذه الرابطة التي قررها الإسلام وأعلنها رسول الله ﷺ مشدودة بالعقيدة والإيمان، أصبح من لوازمها الولاء لله وللرسول وللمؤمنين. فالمسلم مطالب "بأن يكون ولاؤه القلبي والعملي لإخوانه في الدين"، ومقتضى ذلك الحب في الله، قال الرسول ﷺ: "ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرءَ لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار" (رواه البخاري).

آصرة العبادات

مما انتهجه الإسلام في تحقيق الأخوَّة وبناء وحدة الأمة، ما أوجبه على عباده من عبادات يؤدونها في جماعة، وأخلاق يتعاملون بها في علاقاتهم الخاصة والعامة، ومقتضيات تفضي إليها الأخوَّة من التناصر والتراحم والتعاون والمناصحة.

أمَّا العبادات، فإن الإسلام حث على صلاة الجماعة،

لقد تميزت الأمة الإسلامية بأنها تقوم على مبدأ الأخوّة ووحدة الأمة، الذي أعلنه رسول الهدى ﷺ بقوله: "أيها الناس، إن ربكم واحد، وإنّ أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى".

وفيها يلتقي المؤمنون المجاورون لكل مسجد في مسجدهم خمس مرات لأداء الفروض الخمسة من الفجر إلى العشاء، ويجمعهم لقاء أكبر يتم في كل أسبوع مرة لأداء صلاة الجمعة والاستماع لخطبتيها، ثم يجتمعون في عيد الفطر وفي عيد الأضحى، ويجتمعون لصلاة الاستسقاء وصلاة الخسوف وصلاة الكسوف ونحو ذلك.

وفي هذه اللقاءات التي تتكرر يوميًّا وأسبوعيًّا وفي العيدين ونحوها مما أشير إليه، تتجلى الأخوَّة ووحدة الأمة في أسمى معانيها، حيث تتضح الغاية من تلك الاجتماعات وهي عبادة الله والخضوع له والتذلل بين يديه، يلتقي من أجلها المؤمنون في بيت من بيوت الله يتقدمهم إمام يأتمون به، رمزًا لوحدة الغاية ووحدة الهدف، ويصطفون من خلفه في نسقٍ ونظامٍ متجهين لرب واحد، وقبلة واحدة، وعلى منهج واحد، اتباعًا لنبيهم محمد ﷺ إمام الأمة وقدوتها الذي قال: "صلوا كما رأيتموني أصلي" (رواه البخاري)، والذي حث على صلاة الجماعة وقال بشأنها: "تَفْضُلُ صلاةُ الجميعِ صلاةَ أحدكم وحدَه بخمسٍ وعشرين جُزْءا" (رواه البخاري).

ولا يتسع المقام هنا لاستقصاء ما ورد من الحث على تلك اللقاءات، ولا ما تنطوي عليه من الفوائد والحكم التي تتميز بها الأمة الإسلامية على سائر الأمم الأخرى، والتي تعد -في الحقيقة- من نعم الله على هذه الأمة وعلى نبينا محمد ﷺ.

آصرة المنظومة الأخلاقية

تأسست الأخوَّة ووحدة الأمة على المنظومة الأخلاقية التي جاء بها الإسلام، وهي من الأهمية بمكان، منها ما دعا الإسلام إلى التحلي به كالصدق والأمانة والعدالة والرحمة والصبر، ومنها ما نهى عنه وحذَّر منه مثل الحسد والحقد والغل والغضب ونحو ذلك.

فأما الصدق فقد أوجب الإسلام على كل مسلم أن يتحلى بهذه الصفة في اعتقاده، وفي قوله وفعله، قال الرسول ﷺ: "عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر" (متفق عليه). وحقيقة البر في الإسلام تتناول كل خير يفعله الإنسان في محيطه، بدءًا بأسرته ومجتمعه ووصولاً إلى المجتمع الدولي بعامة. وعندما يتصف سائر أفراد المجتمع بالصدق على هذا النحو، ويتحقق البر بمعناه القويم، تقوم أخوَّة الإسلام ووحدة الأمة على أساس متين يسهم في قوتها، إضافة لغيره من الأسس الأخلاقية الأخرى ومنها:

• **صفة الأمانة** كأساس آخر لتلك المنظومة الأخلاقية المهمة في بناء الأخوَّة الإسلامية ووحدة الأمة، والنصوص الشرعية من الكتاب والسنة تتضافر في الأمر بها والنهي عما يقابلها قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾(النساء:٥٨)، وقال الرسول ﷺ: "لا إيمان لمن لا أمانة له" (رواه الإمام أحمد). ويدخل في الأمانة، أداء ما أوجبه الله على الإنسان من حقوق لله تعالى، وحقوق لعباده، وحقوق لنفس الإنسان ذاته.

وما ينبغي التوجيه إليه والتأكيد عليه هنا من معنى الأمانة، هو تعامل الفرد المسلم مع أخيه، ثم تعامل الأمة بعضها مع بعضها الآخر ومع غيرها من المجتمعات البشرية والأمم الأخرى، والضابط في ذلك هو؛ أن يتعامل الإنسان مع غيره بمثل ما يحب أن يعاملوه به من النصح والصدق والإخلاص والوفاء في شتى ميادين الحياة، ومجالات التعامل الإنساني، إلا أن هناك فرقًا يتميز به الفرد المسلم، وتتميز به الأمة الإسلامية في التعامل مع الآخرين، وهو أن الإسلام "ينهى عن خيانة الذين يخونوننا، أي أن اقتراف جريمة الخيانة من قبل الآخرين لا يسوغ لنا خيانتهم. فالخيانة ليست من الاعتداءات التي تقابل بالمثل" قال الرسول ﷺ: "أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك" (رواه البخاري). وهذا معنىً عميق للأمانة امتازت به الأمة الإسلامية على غيرها من الأمم، وعلى هذا فإن الأخوَّة الإسلامية ووحدة الأمة، ترتكز على أساس متين آخر هو الأمانة بهذا المفهوم الإيجابي الخير كفضيلة من الفضائل الأخلاقية المهمة، لقيام حياة الأمة في شتى نواحيها، وفي الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية بصفة خاصة.

• **صفة العدالة** حرص الإسلام على تحقيقها بين أفراد الأمة على نحوٍ يوازن بين الحقوق والواجبات والمسؤوليات الفردية والاجتماعية. وهناك معنىً لطيف آخر للعدل، بأن يتجسد العدل ابتداءً في ذات

الفرد المسلم وهو "أن يأخذ المرء ويدع طبقًا لمبادئ الإسلام". وعند ذلك يحقق المسلم العدل في ذاته أولاً، ثم يتخلق به في تعامله مع غيره ثانيًا، فتقوم الأخوَّة الإسلامية ووحدة الأمة على أساس من العدل في الأخذ والعطاء وفي المواقف كلها.

• **الرحمة** أساس متين وركن ركين للأخوَّة ووحدة الأمة بصفتها "فضيلة من فضائل الإنسان تدفع إليها العواطف النبيلة والإحساس الإنساني الشريف، وقد وصف الله بها نفسه، وتفضل بها على خلقه، والله يحب من عباده أن يكونوا رحماء فيما بينهم، فيعطف كبيرهم على صغيرهم، ويوقر صغيرهم كبيرَهم، يواسي غنيهم فقيرهم، ويعين قويهم ضعيفهم، ويرشد عالمهم جاهلهم، ويهدي حكيمهم سفيههم، ويرى المحكوم رحمة الحاكم به، كما يرى الأبناء رحمة الآباء، والتلاميذ رحمة المعلمين، والمرضى رحمة الأطباء، أولئك هم الذين يرحمهم الله ويعطف عليهم، ويسعدهم بحسن لقائه، وينجيهم من فتنة الحياة والممات "الراحمون يرحمهم الرحمن". وكما أوجب الله تعالى على الإنسان أن يرحم أخاه الإنسان، أوجب عليه أن يرحم الحيوان".

فالرحمة تشمل في قلب المؤمن سائر خلق الله من حيوان وطير ونحوها. ومن لطف الله وكرمه أن رحمته سبقت غضبه كما في الحديث: "إن الله كتب كتابًا قبل أن يَخلق إن رحمتي سبقت غضبي" (رواه البخاري). وقد بين الله ﷻ أن رحمته وسعت كل شيء، وأنه يختص بها من يشاء، وأنه سيكتبها لعباده المؤمنين. ولئن كانت الرحمة بهذا الشمول والعمق والتأثير، فإن ما يتعلق منها بالأخوَّة الإسلامية، يتمثل في ذلك القلب النابض بالحب والرأفة والحدب على غيره الذي يكتنفه كل مسلم.

ومن هنا تكون لبنات الأمة الإسلامية سليمة الطوية، مرهفة الحس تتعاطف وتتآلف، وقدوتها في ذلك وفي كل خلق كريم سيد الأنبياء وخاتم المرسلين نبينا محمد ﷺ؛ فقد لازمته الرحمة في أصعب الظروف والمواقف، وعندما طُلِبَ منه أن يدعو على المشركين قال: "إني لم أبعث لعَّانًا، وإنما بعثت رحمة" (رواه مسلم). وبهذه الرحمة وما تفعله من آثار، وما تتصل به من صفات الجلال والكمال، بنى الرسول ﷺ صرح الأمة الإسلامية.

الأمانة هي تعامل الفرد المسلم مع أخيه، ثم تعامل الأمة بعضها مع بعضها الآخر ومع غيرها من المجتمعات البشرية والأمم الأخرى، والضابط في ذلك هو أن يتعامل الإنسان مع غيره بمثل ما يحب أن يعاملوه في شتى ميادين الحياة.

• **الصبر**، انتهج الإسلام في بناء الأخوَّة الإسلامية ووحدة الأمة وضمان استمرارها وسلامتها، الأمر بالصبر والحث عليه، لأهميته في حياة الأمة كركيزة من ركائز المجتمع الإسلامي السليم. وتتسع دائرة الصبر في الإسلام على مستوى الفرد والأمة ليشتمل على أنواع كثيرة منها؛ الصبر على طاعة الله، والصبر عن معاصيه، والصبر على البلايا والمصائب والشدائد، أي الصبر في البأساء والضراء. والصبر فضيلة ينبغي على المسلم وعلى الأمة الإسلامية التذرع بها لمواجهة مصاعب الحياة وأعبائها، كي يتحقق لها الفلاح والنجاح. ومما تفرد به الإسلام وتميزت به الأمة الإسلامية، أن الصبر مأمور به بصفة مستمرة، وأنه من المبادئ الأساسية في الحياة الخاصة والعامة.

هذه أهم الأخلاق التي يقوم عليها بناء الأخوَّة والوحدة في الإسلام، يتصل بها جملة أخرى من مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال، أمر بها الإسلام وندب إليها وحث عليها، مثل الوفاء والعفو والصفح، والستر على المسلم وحفظ سره ونحو ذلك.

إلى جانب هذه الأخلاق الفاضلة المأمور بها والمندوب إليها أخلاق مذمومة نهى الله ﷻ ورسوله ﷺ عنها؛ منها البغض والحسد والتدابر والقطيعة والسخرية والاستهزاء وإساءة الظن والغيبة والنميمة والتجسس والغضب، ونحوها مما يفسد أواصر الأخوَّة، ويهدم وحدة الأمة من مرذولات الأخلاق ومساوئ الأعمال. ■

(*) كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / المملكة العربية السعودية.



د. عبد الإله بن مصباح*

التغيرات المناخية والوعي البيئي

لقد شكلت البيئة في البناء الحضاري عبر العصور، نسقًا طبيعيًّا منسجمًا مع سنن الكون. وكل بناء حاد عن هذا الانسجام، حُكم عليه بالفناء لانعدام الأرضية المزودة له بقوة الإنبات. فكان دأب الحضارات عبر التاريخ، البحث عن بناء الإنسان المؤهل للنمط الذي يتماشى مع الأسلوب الذاتي لكل حضارة ومع فكرها العقدي، إلى أن جاءت الرسالة المحمدية بنظرتها الشمولية التي ارتقت بالإنسان من التأهيل النمطي إلى المنظور الكوني. فكان ذلك إيذانًا بانفتاح الإنسان على مقومات الطبيعة الراقية، وطلبه سبر أغوارها لفهم أسرارها، تلك الأسرار التي ما قامت المشاريع الحضارية المتقدمة إلا على محاكاة نماذجها.

الحاجة إلى نظرة شمولية

إننا اليوم، نظرًا لما بدأت تثيره معضلة التغيرات المناخية من أخطار تهدد معايش الإنسان وتمس استقرار بيئاته الطبيعية، تلك المعضلة التي تجعل الإنسان في صلب موضوعها كمسؤول عنها ومتحمل لعواقبها، ثم نظرًا لكون العلوم بكل تخصصاتها، تقف اليوم عاجزة، ولا تستطيع الإجابة عن كل التساؤلات المطروحة حول هذه المعضلة، وإنما التفسيرَ لبعض ظواهرها وإعطاء التنبؤات، واقتراح بعض الحلول التي تبقى في مجملها جزئية، فإنه بات من الضروري استحضار تلك النظرة العلمية الشمولية التي أصَّل لها الإسلام في معالجة مثل هذه القضايا. ذلك أن المسألة لا تنحصر فقط في قضايا الطبيعة المادية، بل تتعداها إلى أبعادها الغيبية، لأنه ما دام أن الذي خلق هذه الطبيعة هو الذي أوحى لعبده مفاتيح الفهم لمغاليقها، فذلك يعني أن نصوص الوحي تبقى دليلاً أساسيًّا في التعامل مع الطبيعة وحسن تدبير شؤونها.

لهذا فمعضلة التغيرات المناخية التي باتت اليوم تطرح نفسها بحدَّة، يجب أن لا تبقى حبيسة الحلول التقنية، لأن المسألة في أصلها هي أعمق من ذلك بكثير، إذ لها جذور أخلاقية ضاربة في أعماق الفراغ الروحي، الذي أورد الإنسان متاهات البعد عن مقومات الطبيعة الراقية، وضيق التقيد بمحدودية منافعها المادية. وعلى هذا الأساس، فالحوار في هذا الموضوع، أصبح يستدعي اليوم آليات فكرية جامعة بين المعرفة بالطبيعة التي هي واقع الإنسان، والاعتماد على العقل الذي هو مفتاح الفهم لأسرارها، والأخذ بالوحي الذي هو دليل المعرفة بحقيقتها، ذلك لأن هذا الكون الذي خلقه الله محكمَ البناء متناسقَ العلل، إنما جعله سبحانه مرجعًا تجريبيًّا للإنسان، لعله يستدل به على تصوراته الفكرية ومفاهيمه العلمية، فيؤسس على ضوئها النماذج التفسيرية، والنسق البيانية الموصلة إلى فهم المعنى الذي أراده الله من هذا الوجود، لا المعنى الذي يريده الإنسان.

التوعية البيئية

في زمان أصبح فيه العقل عنوانًا للتحدي، صار لا بد للحوار في مجال التوعية البيئية، حتى يكون مجديًا، أن

لا يمكن للإنسان أن يحسن التعامل مع البيئة بفكر علمي متنور، إلا بحسن قراءته لنصوص الوحي التي هي الدليل على أسرارها، وكذلك الخلق، لتحسن التعامل معه لا بد من الرجوع إلى الكتاب المنزل.

يصاغ وفق آليات كونية تمكّن المحاوِر من نقل مخاطَبه من المشاهدات الكونية المدرَكة بالحواس والعقل، إلى اليقينيات العلمية المستلهَمة من الوحي. فالكون، هذا المرجع العلمي الذي هو القاسم المشترك بين جميع البشر، هو كتاب مفتوح لكل متطلع إلى معرفة الحقيقة، والتفكر فيه يمكّن من خلال القراءة العلمية لظواهره، التي أداتها الحواس ومفتاحها العقل، من تحصيل الاطمئنان وبلوغ اليقين. فإذا استطاع المحاوِر أن يشغّل في نفس مخاطَبه ذلك السلك الذي يصل الحواس والعقل بالقلب، نفذت المعلومة إلى قلب المخاطَب فصارت يقينية علمية مستجلبة للاطمئنان الروحي. وذلك سر الحوار في التوعية البيئية التي هي أساس العلاج لمعضلة التغيرات المناخية.

فالخطاب القرآني لمّا جاء يدعو الإنسان إلى اليقين؛ ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾(الأنعام:٧٥)، تدرَّج به من القراءة التفكرية إلى القراءة التدبرية، على اعتبار أن القراءة التفكرية هي مطالعة علمية ليقينيات الكون، وبالتالي لها من الخصوصيات ما إن قوته لَتمكن القارئ من الدخول من المفاهيم العقلية إلى الحقائق اليقينية بقلب هيأه العقل فصار متفتحًا على أبعادها الغيبية. وسورة النبأ خير مثال على هذا النهج، حيث سردت على القارئ في نصفها الأول، جملة يقينيات كونية من أرض وجبال وليل ونهار وأعاصير وأمطار وجنات وأزهار، وما إلى ذلك من مكونات الطبيعة المحسوسة عند البشر، أو المدركة بالعقل والنظر، قبل أن تنتقل به في النصف الثاني إلى الحقائق الغيبية من قيام الساعة وفناء وبعث وحساب وجنة ونار وما إلى ذلك، مما هو من الغيب المطلق حتى يحصل له اليقين من خلال تذكيره بمداركه

ما من إنسان تحركت فيه الفطرة، إلا وعاد إلى إنسـانيته المتطلعة دومًا إلى الحقيقة، فكان ذلك دافعًا له إلى الاسـتقامة مع نسق الكون المستقيم. وذلك هو الوازع الأمثل لبلورة الحوار، والسبيل الأنسب إلى تحقيق وعي بيئي قادر على استيعاب حقيقة التغيرات المناخية.

حراء

الكونية أن ما جاءت به الآيات الغيبية هو من صميم الحقائق اليقينية.

وهذا ما يجب أن يستحضره المسلم اليوم في إقباله على الآخر ومحاورته في موضوع التغيرات المناخية، لأن الحوار في هذا المجال، لم يعد يستدعي في هذا الزمان فقط الآليات العقلانية بقدر ما صار يتطلب استحضار هذه الأبعاد الغيبية. والمحاوِر، بحكم أدبيات الحوار التي تفرض عليه أن يُقبل على الآخر منتظرًا منه ما يفيد، ثم بحكم مستجدات العصر العالمية التي تفرض على الحوار نقاشًا متطلعًا إلى الحقيقة، أصبح مطالَبًا بإدارة الحوار في حلقة علمية تمكنه تجاذباتها الفكرية من طرح النماذج التفسيرية والنسق البيانية الموصلة إلى فهم المعنى الذي أراده الله من هذا الوجود، لا المعنى الذي يريده الإنسان. فالله لما جلا لنا مشهد هذا الكون، أطلعنا سبحانه على حقيقة السجود، التي تسري على كل مكوناته بحكم قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾(الحج:١٨)، فكان هذا الخطاب جامعًا للمعنى، حيث دلنا سبحانه من خلاله على سر حقيقة الحياة التي تسري في كل ما خلق. ذلك الخلق الذي دعانا سبحانه إلى معرفة سر حقيقته في قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(العنكبوت:٢٠)، وهي الآية التي تحمل الدوائر المعرفية الثلاث للبناء العلمي الذي هو أساس الفكر البيئي. فالآية من خلال السياق الذي جاءت به صيغتها في البحث في مجالات الخلق، دعت إلى الترقي في هذه الدوائر المعرفية الثلاث، بحيث أشار الشطر الأول منها في قوله تعالى ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ إلى دائرة المحسوسات، بحكم أن الأرض تمثل واقع الإنسان المحسوس، والسير فيها يمكّن حواسه من الإدراك المباشر لطبيعتها.

أما الشطر الثاني منها فقد أشار في قوله تعالى: ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ إلى دائرة المعقولات، بحكم دعوته الإنسان إلى النظر، أي البحث والتفكير في أسرار بدء الخلق، التي غبرت ولم يعد له عليها رؤية إلا من خلال الآثار، ثم في آفاق النشأة الآخرة التي لم تحدث بعد، وليس له عليها دليل إلا من خلال الاستشعار. وبين هذه وتلك، يبقى عامل الزمن الذي بفعله تتغير الأشياء وتتسلسل الأطوار، فحتى يمكن للإنسان أن يطلع على هذا العالم الغابر بين بدء الخلق ونشأته الآخرة، كان لا بد له من الاعتماد على العقل الذي -كما أشارت إليه الآية- يُختزل بين عبارتي ﴿انْظُرُوا﴾ و﴿كَيْفَ﴾.

أما الشطر الثالث من الآية المتجلي في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقد أشار إلى دائرة الإخباريات، لأن محتواه من الوحي الذي هو الغيب المطلق، أي الحقيقة التي ليس بعدها إلا الضلال، والتي إليها ينبغي أن تؤول نتائج الشطر الأول والثاني؛ حتى تتحقق الإحاطة العلمية التي من أجلها جاءت الآية مستنهضة الفكر في الإنسان.

عواقب إقصاء الوحي

لكن الفكر البيئي المعاصر، أقصى دائرة الوحي، واقتصر فقط على دائرتي الواقع والعقل، فنتج عن ذلك تدمير الأرض بقوة السلاح النابعة من منطق الهيمنة (النووي)، وإلحاق الكوارث الطبيعية بالبيئة (التلوث). فإقصاء دائرة الوحي، جعل الإنسان يتعامل مع الطبيعة على اعتبار أنها آلة ميكانيكية فتاكة فاتخذها عدوًّا له. لكن هذه الطبيعة بمكوناتها البيئية، كلُّها كائنات تسبّح الله وتسجد له، وهو ما يدل على حياة هذه الكائنات، لأننا إذا تأملنا في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾(القصص:٨٨) وعلمنا أن الهلاك هو الموت، فسندرك أن كل شيء حي، لكن عقولنا قاصرة عن فهم حقيقة الروح التي

تسري في هذه الأشياء.

إذن، ما دامت عقولنا قاصرة، كان واجبًا علينا أن نستلهم من الوحي ما يمكننا من استحضار هذا المعطى الروحي في تعاملنا مع قضايا البيئة، لأن مكوناتها هي أرواح قبل أن تكون أجسام. فالوحي من الله والخلق من الله، وما دام الذي خلق هو الذي أوحى، فذلك يعني أن الخلق والوحي هما وجهان لحقيقة واحدة هي قدرة الله المنزهة عن كل الأسباب. وهذا يدل على أن الإنسان لا يمكن له أن يحسن التعامل مع البيئة بفكر علمي متنور، إلا بحسن قراءته لنصوص الوحي التي هي الدليل على أسرارها، كشأن آلة تريد ضمان حسن استعمالها لا بد أن تحسن قراءة دليل استعمالها الذي هو الكتالوج. كذلك الخلق لتحسن التعامل معه لا بد لك من الرجوع إلى الكتالوج الإلهي الذي هو الكتاب المنزل.

فالكون الذي هو القاسم المشترك بين جميع الناس، يشكل المرجع العلمي الذي على نُظُمه يُجمع كل العقلاء، وظواهره هي حقائق بينة لا يختلف عليها اثنان. فإن استطاع المحاوِر المسلم أن ينطلق منها في إقباله على الآخر ونفوذه إلى عمقه الفكري، من خلال مد جسور التواصل العلمي معه، والإقبال عليه باعتراف مسبق بخصوصيات فكره التي هي المنطلق للتفاهم والمستند للترقي في الحوار، فسيمكن له أن يكون مؤثرًا فيه، فيتمكن من خلال اطلاعه على أبعاد معتقده أن يتجاوب معه فيُقنعه انطلاقًا من خصوصيات فكره بأن هذه البيئة المسخرة للإنسان، هي أرواح ناطقة بعظمة مبدعها، وأمانة هو مسؤول عن حسن التعامل معها لأنها تبقى شاهدة عليه إلى يوم القيامة.

العلم والفطرة

ومن هنا، يمكن للحوار المنبثق من عمق هذه الرؤية الشمولية، أن يجعل الكلمة تسري إلى كل القلوب. فالله تعالى لما خلق آدم ﷺ ونفخ فيه من روحه، بث فيه سبحانه من العلم ما أصبح فطرة في البشر. فكان ذلك التأصيل العلمي لفكر الإنسان، هو أصل تكريمه وميزان الفطرة السليمة فيه، الذي به يترقى في مراتب الكمال التي من أجلها خُلق. فهو كما يؤسِّس له القرآن، ينبني على أسس الواقع والعقل والوحي. وما صرَف فكرَ الإنسان عن هذه البنية الأصلية للعلم، إلا عللٌ طرأت عليه فأبعدته عن الإحاطة العلمية التي هو مطالب بها. فإذا رأيت العالِم تنزّل علمُه التنزيل المتكامل على هذه الأسس الثلاثة فتوافق عنده الواقع والعقل مع الوحي، فاعلم أن ذلك من سلامة فطرته، وإلا فهو في ضعف من الفطرة، تُبعده تداعياتها عن الإحاطة العلمية بحقائق الأشياء ومضامينها.

الخطاب القرآني لمّا جاء يدعو الإنسان إلى اليقين، تدرّج به من القراءة التفكرية إلى القراءة التدبرية، على اعتبار أن القراءة التفكرية هي مطالعة علمية ليقينيات الكون.

وهكذا يتبين أن السر في إعادة تأصيل الفكر البيئي على أصوله العلمية الموصلة إلى إدراك حقيقة التغيرات المناخية والتعريف بأسبابها الخفية، يكمن في أن تعمل -أيها المسلم- على إدماج قناعاتك الفكرية في قناعات مخاطبك عبر السياقات الكونية، التي هي كمجاري الماء وكأشعة الضوء لا يُعيق نفوذها عائق. فتعيده إلى الفطرة السليمة التي بها كمُل الإنسان، والتي ما انحرف عنها إلا لعلل وأمراض طرأت عليه، فتقوم أنت بما يقوم به ذلك المعالج النفساني، الذي يسلك بمريضه مسلك إعادته إلى الحالة السليمة التي كان عليها قبل المرض.

فالإنسان هو نفخة من روح الله، فإن استطعت أن تحرّره من رق ذاته التي هي السبب في دائه وعلته، أعدته إلى فطرته فأشرقَتَ فيه أنوار صفاته ﷻ. فما عليك إلا أن تحرك في مخاطبك تلك الفطرة التي غارت في كيانه، وانطمست بصدأ الزمان، فتستنهضها فيه، لأن ما من إنسان تحركت فيه الفطرة، إلا وعاد إلى إنسانيته المتطلعة دومًا إلى الحقيقة، فكان ذلك دافعًا له إلى الاستقامة مع نسَق الكون المستقيم. وذلك هو الوازع الأمثل لبلورة الحوار، والسبيل الأنسب إلى تحقيق وعي بيئي قادر على استيعاب حقيقة التغيرات المناخية. ■

(*) كلية العلوم، جامعة ابن طفيل / المغرب.

د. سليمان الدقور*



الحضارات
صلات وعلاقات

ليس غريبًا أن يبرز اهتمام المفكرين على مدار التاريخ بقضية الحضارات، فإن سعة الوعي والاطلاع ووضوح الرؤيا وتحديد الأفكار، يأخذ باتجاه أدق القضايا وأخطرها في حياة الشعوب والأمم. من هنا نفهم اهتمام مفكرينا وعلمائنا بقضية الحضارات في نشأتها وبنائها ورقيّها وشهودها، أو انتكاسها وانهيارها وضمورها واضمحلالها. وعلى رأس هؤلاء المفكرين الذين جاءوا في وقت حرج من تاريخ أمتنا؛ الأستاذ مالك بن نبي، والأستاذ فتح الله كولن، حيث برز اهتمامهما -كغيرهما- بالغًا في مسألة استعادة الذات الفردي والجمعي للأمة، وإعادة الصياغة الحضارية وفق المنهج الإسلامي الرشيد.

مسألة الحضارة

ظهر جليًا اهتمام المفكر مالك بن نبي في مسألة الحضارة؛ حيث تجد ذلك في معظم كتبه وكتاباته بناءً

وتفصيلاً. وقد حرص أن يبرز إشكالية الحضارة من ثلاثة جوانب:

١- من حيث تركيبها؛ أيْ دراسة العناصر المكونة لها.

٢- من حيث وظيفتها؛ أيْ باعتبار وظيفتها ودورها في المجتمع.

٣- من الناحية التاريخية الاجتماعية؛ أيْ دراسة كيفية نشأتها وتطورها وأطوارها.

ولأجل ذلك اهتم بدراسة الحركة التاريخية التي تمثل الحقل الذي تتولد فيه الحضارات، واستعرض كثيرًا من النظريات الغربية التي فسرت الحركة التاريخية. لكنه بعد رؤيته لها عاجزة عن تفسير ميلاد الحركة التاريخية التي تولدت فيها الحركة الإسلامية مع مجيء النبي الكريم ﷺ، رأى من الضروري إيجاد نظرية جديدة إسلامية؛ تفسر هذه الحركة وتحتوي في جوانبها المقومات والمبادئ الخاصة بها.

في ذات السياق، نجد هذا الاهتمام في أجلى صورة عند المفكر الإسلامي فتح الله كولن؛ حيث انطلق في ذلك من مستوى "رعاية الفرد إلى إيجاد المجموع"، وقد ظهر ذلك جليًا في كتابين رئيسين شملا مقالات عدة له، الأول "ونحن نقيم صرح الروح"، والثاني "ونحن نبني حضارتنا".

لكنه امتاز في بنائه ذلك بالتركيز على البناء العقلي الفكري، والبناء النفسي والروحي؛ فقدم ذلك في الجانب الفردي من خلال التربية الروحية والعلمية للفرد المسلم، ليخرج من جهله وجفاف روحه. وقدم ذلك في الجانب الجمعي، من خلال بناء المؤسسات العاملة على تحقيق الشهود الحضاري، والبعث الحضاري للأمة على أساس متين من التجهيز والإعداد والتخطيط والتنظيم، وعلى أساس متين من البناء التزكوي الروحي الساري في أعمالها ونتاجها، وقد حقق بذلك مبدأ "الصوفية الحضارية"، وهو مفهوم يحتاج إلى رعاية خاصة ودراسة مستقلة عند الأستاذ. وهو يعطي مفهومًا دقيقًا وجديدًا للحضارة كما يعرضه في كتابه "ونحن نبني حضارتنا" (ص١٢)، يقول: "هي مجموع النشاطات المتعلقة بتنظيم الحياة الإنسانية، أو التصورات الفكرية والاعتقادية والفنية لأي أمة، أو كل الأوصاف الخاصة

إذا كان خطاب مالك بن نبي خطابًا نخبويًا لم يجد الاهتمام إلا في بعض الأوساط الفكرية والأكاديمية، فإن خطاب الأستاذ فتح الله كولن يعدّ خطابًا تعبويًا استطاع أن يجد من يتبناه فيحققه واقعًا عمليًا من خلال مجالات عدة: اقتصادية وفكرية وتربوية وإعلامية.

بوجودها المادي والمعنوي". وعلى ذلك فهو يقدم أبعادًا ثلاثة للحضارة: فهي إما نشاطات تركِّز على الأعمال والمهام، وإما تصورات تركِّز على المكونات، أو أوصاف تركِّز على المخرجات والنتاجات. ويمكن أن نرتب تلك الأشياء الثلاثة في تصورات ومكونات، أعمال ومهام، مخرجات ونتاجات.

وفي السياق ذاته، يفرق بين صناعة الحضارة الإسلامية، وتحقيق النهضة الإسلامية، من منطلق التبعية. يقول: المطلوب "إعادة بناء الذات من جديد، وأن نبحث عن أسلوبنا الذاتي الحضاري بدل العرض الخلاب الذي نقوم به لما أنتجه غيرنا تحت اسم الحداثة والنهضة الإسلامية".

بين السيرة النبوية ومبادئ الإسلام

نجد مشتركًا واضحًا عند كل من المفكرين الكبيرين في ضرورة التفسير الإسلامي للبعث الحضاري، لكن فارقًا دقيقًا بين رؤية كل منهما يمكن توضيحه بشكل مختصر كالتالي:

ففي الوقت الذي كان اعتماد مالك بن نبي على قيم الإسلام ومبادئه في صورها التجريدية، فقد كان اهتمام فتح الله كولن متجهًا إلى تجسيد السيرة النبوية في عناصرها العملية ونماذجها الواقعية، لبعث الصورة الحضارية من جديد في واقع الأمة.

فهو يؤكد في أكثر من مقال ودراسة، بل في كتابه "النور الخالد"، يبذل الجهد الكبير في التجسير القيمي بين مواقف النبي ﷺ وصحابته الكرام، وما ينبغي أن يشكل ذلك من نموذج عملي لجيل اليوم لاستعادة دوره ومكانته.

ليس معنى ذلك أن مالك بن نبي لم يهتم بأحداث السيرة ومواقف الصحابة، لكنه في دراسته النخبوية

المختصرة، كانت وقفاته إشارات مقتضبة حول بعض القضايا والجوانب التي تدعو إليها الحاجة.

بين الاستعمار وهدم الخلافة

قد تبدو الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية متقاربة في البيئة التي عاش فيها كل من المفكرين الإسلاميين، لكننا وبالنظر إلى الاختلاف الزمني بينهما، وكذلك الاختلاف في البيئة الجغرافية، والاختلاف في اللغة؛ إلا أن الجامع المشترك في المستمد الحضاري -وهو القرآن الكريم- أثر تأثيرًا كبيرًا لنجد تشابهًا إلى حدٍّ كبير في أهم المشكلات التي يعالجها كل منهما، فضلاً عن التقارب الكبير في المنطلقات والغايات لكل منهما.

غير أن الظروف الخاصة بكل منهما من جهة، والظروف السياسية المتمثلة في الاستعمار الغربي للعالم العربي، وفي هدم الخلافة الإسلامية وإحلال العلمانية المتطرفة في تركيا من جهة ثانية، كل ذلك أدى إلى تباين واضح في تناول كل من مالك بن نبي وفتح الله كولن لمسألة الحضارة. ليس المجال هنا للمقارنة المفضية للمفاضلة، ولكنه توضيح من شأنه تسليط الضوء على أهم القضايا الأساسية التي شكلت الأبعاد الأساسية للنتاج الفكري لكل منهما.

فإذا كان خطاب الأستاذ مالك بن نبي خطابًا نخبويًّا لم يجد الاهتمام إلا في بعض الأوساط الفكرية والأكاديمية، فإن خطاب الأستاذ فتح الله كولن يعدّ خطابًا تعبويًّا استطاع أن يجد من يتبناه فيحققه واقعًا عمليًّا من خلال مجالات عدة؛ اقتصادية وفكرية وتربوية وإعلامية، وغير ذلك مما حققته مؤسسة "الخدمة" كما يسمِّيها هو.

إذا كان الهم الأكبر عند مالك بن نبي هو رؤيته للهزيمة النفسية والحضارية التي تعيشها الأمة والمتمثلة بـ"القابلية للاستعمار"، وما سبَّب ذلك من غياب لمفهوم "الثقافة"، وما تبع ذلك من حديثه عن "دور الدين في بناء الحضارات"، وعن "إشكاليات صناعة الحضارة: الإنسان، التراب ، الوقت"؛ فإن الهم الأكبر الذي شغل الأستاذ فتح الله كولن هو الآثار المدمرة التي حصدها الشعب التركي المسلم نتيجة تعرضه لتشويه ثقافته وتاريخه وقيمه.

فكان الواقع المهزوم الذي واجهه فتح الله أعمق أثرًا من الواقع الذي واجهه مالك بن نبي، ومن هنا كانت المهمة لديه، ذات اتصال مباشر بإعادة بناء الفهم الصحيح للإسلام، من أول مبادئه وقيمه إلى قمة تجلياته وآثاره.

وهو يعالج المشكلة الخطيرة التي وصفها مالك بن نبي بـ"قابلية الاستعمار" من خلال "إعادة البناء الاجتماعي المولِّد للعبقرية، والوسط المناسب؛ لتنشئة المبدعين، (أي البيئة العامة الحاضنة للقابليات)"، فهو يرد على بيئة ببيئة، لكنه يريدها بيئةً صالحةً، يسميها "الدائرة الصالحة" ومنها تبدأ صناعة القابلية، حتى لا نفسد النهضة بجهود علماء وأشخاص محدودين.

فكما صنعوا في هذه الأمة القابلية للاستعمار والاستضعاف والاستعباد، يجب أن نضع فيها -وهذه مهمة الصالحين والدعاة- " قابلية الانبعاث"، ثم هو يقدِّم ما أُسميه بـ"معادلة الانبعاث الحضاري"؛

١- محورها الإنسان المؤهل.

٢- أثمن رؤوس أموالها الزمن بما فيه من حركة وعمل.

٣- أقوى أسسها الحيوية دولة حرة مستقلة تشكل البيئة والنظام.

٤- روحها ومحفِّزها ومحركها الدين.

وتعدّ هذه أهم أركان ظاهرة الحضارة. ويبقى الحديث طويلاً في بيان كثير من الظروف المحيطة بتشكل الأفكار وتكوينها لدى المفكِّرَين الكبيرين أطويه هنا، لأن بسطه يحتاج إلى وقفة ومناسبة مختلفة.

لذا ننتقل مباشرة لنتحدث عن قضايا ذات أهمية بالغة، مثل:

١- المشاريع النهضوية في العالم الإسلامي

إن إطلالة سريعة على تعدد المشاريع النهضوية في عالمنا الإسلامي، يؤكد أمرين اثنين، أولهما مدى إحساس عالمنا بما يعاني من تأخر حضاري، وثانيهما مدى إحساسنا بالحاجة إلى هذه المشاريع وأهميتها.

وهو إحساس في حقيقته، منسجم مع الحاجة النفسية النمائية للإنسان، إذ يحس بحاجته إلى تغيير واقعه والانتصار على ضعفه.

ولكن كثيرًا من هذه المشاريع، يبقى حبيس الكتب

وعقول أصحابها ومن تأثر بها، ولم نرَ لها أثرًا عمليًا ومشاريعيًا يحقق النهضة وفق خطوات عملية واقعية.

في حين نرى الصورة مختلفة عند الأستاذ فتح الله كولن؛ حيث استطاع تحويل كثير من أفكاره إلى مشاريع تتكامل لتحقق النهوض الحضاري.

٢- المشكلات التي تعاني منها الأمة

لا شك أن الأمم المهزومة، تعاني من مشكلات كثيرة يتولد بعضها قبل مرحلة الهزيمة، وهو ما يؤدي إلى هذه الهزيمة ويسوق إليها، وبعضها الآخر يستتبع هذه المرحلة من الهزيمة تكون هي سببا في وجوده وتكريسه وترسيخه في حياة الأجيال.

ويمكن النظر إلى هذه المشكلات في مستويين إثنين؛ المستوى الأول: ما تعانيه الأمة على مستوى الوجود، وتتمثل في طغيان الهوية الانهزامية العبثية. والمستوى الثاني: ما تعانيه الأمة على المستوى الاجتماعي، وتتمثل في الفقر، الجهل، الفرقة.

وهذا التصور عن هذه المشكلات، هو ما حرك في كثير من المفكرين الحرقة لتقديم المشاريع والمقترحات النهضوية للخروج من أزمة الأمة في جميع صورها.

وقد قدَّم مالك بن نبي بناءً فكريًا ومشاريعيًا للنهوض الحضاري، تمثَّل بناؤه الفكري في كتبه ومؤلفاته، ومشروعه العملي تمثَّل في الدعوة للوحدة الإفريقية التي سعى إليها، والائتلاف الإسلامي المتمثل بـ"كومنولث إسلامي".

بينما فتح الله كولن قدَّم -إضافة للبناء الفكري- مشروعًا عمليًا تجسد في فكرة "الخدمة"، وهذا شأن طويل يحتاج إلى تفصيل.

٣- أهم ما تسعى إليه الحضارات

ما الذي تسعى إليه الحضارات عمومًا والحضارة الإسلامية خصوصًا؟

القاسم المشترك الإنساني كبير، ويبرز انعكاسه الحضاري في صور متحدة نحو تحقيق ما نحتاجه ويسعى إليه البشر عمومًا.

ويمكن تحديد الحاجة البشرية والحضارية، بقيم رخاء، هناء، بقاء. وهذه العناصر الاجتماعية التي

حرص كل من مالك بن نبي وفتح الله كولن على تقديم صورة واضحة عن العلاقة البينية داخل مكونات الحضارة الواحدة، وكما هو الحال أيضًا في العلاقات البينية التي ترسم صورة العلاقات بين الحضارات.

يحتاجها الفرد ويحتاجها المجموع، يقابلها العمل وفق مشاريع نهضوية لتحقيقها، وتتمثل في محاربة الفقر، وتحقيق الطمأنينة، وتفادي أي دمار؛

• فمن أجل تحقيق الرخاء، لا بد من محاربة الفقر.

• ولأجل تحقيق الهناء الاجتماعي، لا بد من تحقيق الأمن ومحاربة الجريمة.

• ولأجل تحقيق البقاء الحضاري والاستمرار، لا بد من تفادي أي صورة من صور الصراع المؤدي للدمار.

وهذه محركات أساسية يجب أن يتضمنها أي مشروع حضاري، بل وكل مؤسسة تنشأ عن هذه المشاريع.

٤- العلاقات بين الحضارات

حرص كل من مالك بن نبي وفتح الله كولن على تقديم صورة واضحة عن العلاقة البينية داخل مكونات الحضارة الواحدة، كما هو الحال أيضًا في العلاقات البينية التي ترسم صورة العلاقات بين الحضارات.

وتعدُّ هذه القضية من أكثر القضايا التي شغلت المفكرين، ليس على المستوى الإسلامي، بل على المستوى العالمي الغربي والشرقي.

وقد قُدِّمت أكثر من صورة عن هذه العلاقات والصلات، لكنها في الإطار الكلِّي، صورة تعبر عن غلبة القوة التي لا يحكمها الحق؛ فظهرت عدة نظريات تتحدث عن صراع الحضارات وصدامها ونهاية الحضارات.

وهذا هو كتاب "صامويل هنتنجتون" حاضر يقدم صورة عن إعادة صنع النظام العالمي الجديد، وكذلك ما نقرأه في كتاب "فرانسيس فوكوياما": "نهاية التاريخ".

وهناك دراسات تحاول تقديم جملة من التصورات للعلاقة بين أطراف متغيرة، ويمكن إجمال ذلك على النحو التالي:

الإزالة، الاستيعاب، التحالف، المهادنة، المشاغلة،

التجنب، التوظيف، وإن الأساس في نجاح أي أمة في مسيرتها، وتحقيق أهدافها، هو قدرتها على معرفة الخيارات المتاحة أمامها، وقدرتها على التعامل معها. إلا أننا في حديثنا عن التصورات التي يقدمها كل من مالك بن نبي وفتح الله كولن لهذه العلاقات، نحاول أن نُجمل ذلك في الأشكال التالية:

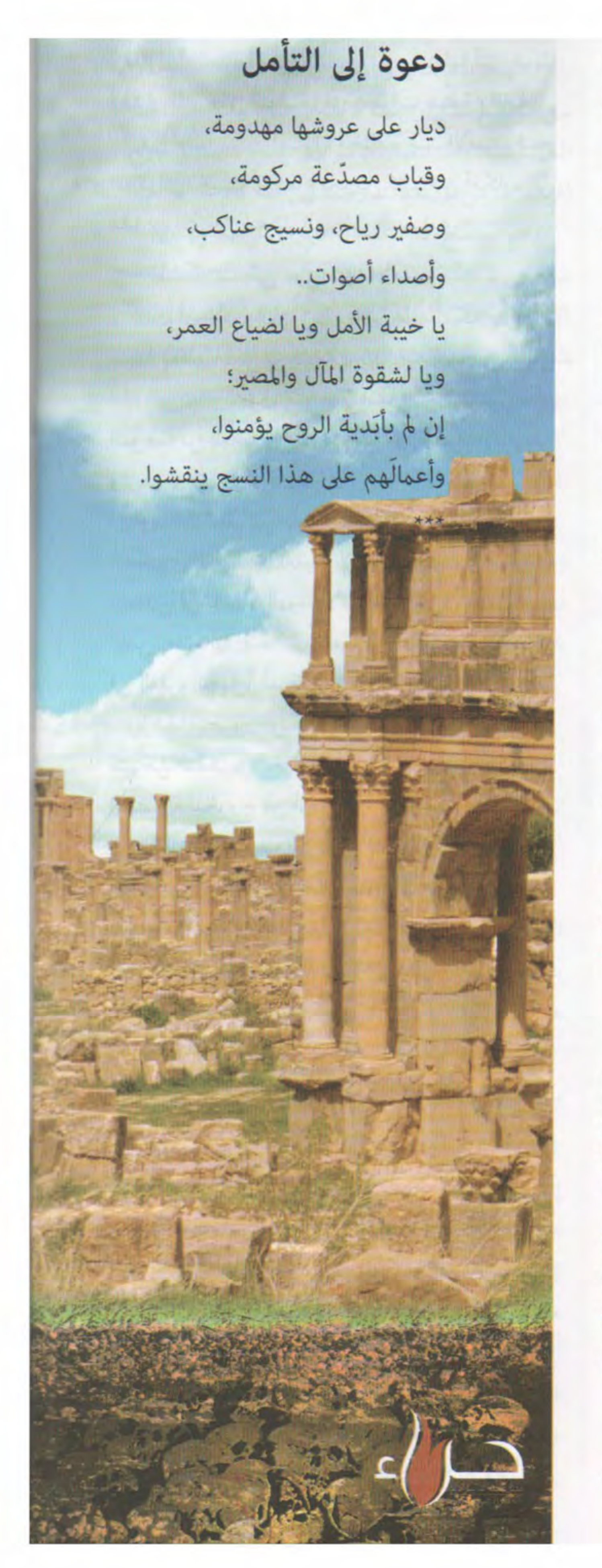
تظهر الصورة العامة للعلاقات بين الحضارات من خلال عدة خيارات: الاستعداء، الاستلهام، الاستفادة، وتظهر القيمة الحقيقية لنوع هذه العلاقة من خلال الاستفادة، أما الاستعداء فمبني على الرفض التام وهو غير مقبول، والاستلهام مبني على القبول التام وهذا فيه صورة التبعية.

ويمكن لنا رسم الشجرة التالية التي تحدد نوع العلاقة في إطارها الكلّي كما أفهمها عن المفكرين، وكما ينبغي أن تكون: فالعلاقة على أحد شكلين؛ الصراع والحوار، ويظهر في مستويين اثنين، ويأخذ الصراع أحد شكلين مع الذات ومع الآخر؛ الصدام والتدافع وهو المطلوب، وهو تعبير قرآني وهدفه توحيد الجهود، والعقيدة، والأخلاق السياسية، ويظهر فيه غلبة القوة واستثمارها للبناء.

ويقوم الحوار على تقديم القيم الإنسانية بمنظومة إسلامية، واستنهاض القيم الموجودة، والبحث عن القواسم المشتركة في المجتمع لا تدميرها. ويمكننا أن نكوِّن العلاقة بحسب التصور التالي:

العلاقة مع غيرنا والعلاقة مع أنفسنا أو مع الذات، وهي ما تحتاج إلى إعادة بناء من أجل بعث حضاري، كما ينبغي إعادة النظر في تصنيفات سادت منذ قرون في تراثنا الإسلامي مثل دار الإسلام ودار الحرب. فالأستاذ "كولن" يقترح في هذا الصدد مفهومًا آخر جديدًا ولافتا، دار التعايش أو دار الخدمة، عالم الخدمة حيث تكون الرحمة والمحبة هي الأساس، وهو ما فعله النبي ﷺ في مكة والمدينة والحبشة. فنحن نريد إعادة صناعة الحضارية الإنسانية لتكون بعيدة عن الصراع والصدام والإقصاء والإلغاء. ■

(*) رئيس قسم أصول الدين في كلية الشريعة بالجامعة الأردنية / الأردن.



دعوة إلى التأمل

ديار على عروشها مهدومة،
وقباب مصدّعة مركومة،
وصفير رياح، ونسيج عناكب،
وأصداء أصوات..
يا خيبة الأمل ويا لضياع العمر،
ويا لشقوة المآل والمصير؛
إن لم بأبَدية الروح يؤمنوا،
وأعمالَهم على هذا النسج ينقشوا.

***

د. العطري بن عزوز*

أزمة الوعي والحقيقة المغيَّبة

إن مشكلة المسلمين والعالم اليوم، هي غياب الفهم الواعي الذي يُنتج السلوك والسلطة والتسخير. يهتم الكثير من المتخصصين في التربية العلمية بتعلم المفاهيم، لأنها تستطيع إعطاء معنىً للتعلم بعكس الحقائق التي لا تتعدى إعطاء المتعلم معلومات حول المادة العلمية، ولذلك يرتبط تعلم المفاهيم بالتعلم. فمسألة الفهم، من المسائل التي يعاني منها الفكر الإسلامي، فالرسول ﷺ حين عرض دعوته على الناس، منهم من فهم واستجاب، ومنهم من فهم وأعرض أو لم يستطع فهمه. فالأول تطابق فهمه مع الزمان والمكان فاستجاب للحق لأنه فهم ووعى، والثاني الزمان والمكان كفيل به إما بإزالته من الوجود أو بمراجعة فهمه، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾(النساء:٥٥). والفهم الواعي، أي المنطلِق من الوعي بالذات التام، يعمل على بناء المعرفة بناءً مستقلاً عن المعطيات الثقافية المبرمجة، وخارج حدود النظام الاجتماعي السائد، وذلك بُغية الحصول على أفضل إدراك للحقائق الموضوعية المختلفة. فالفهم الواعي يجعل المعرفة تتفاعل مع الوجدان وتنقاد إلى الحق، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ

تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾(المائدة:٨٣). فالنموذج الأول يمثّله كل من أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب والرعيل الأول من السابقين للإسلام رضي الله عنهم أجمعين وهم أنموذج العقل الواعي الذي انقاد للحق. والأنموذج الثاني، الذي فهم وأعرض كأبي لهب وأبي جهل، وهم أنموذج العقل الرَّان المتحجّر، وهم يمثّلون القصور الذاتي الذي يتشبَّث بتقليد الآباء والأجداد، ينقل صاحبه من الإدراك الصادق إلى التعامل مع الأوهام. وأنموذج آخر يتمثّل في أبي سفيان ﷺ الذي انصاع إلى الحق ولكن بعد حين، أي الزمان والمكان كفيل به.

القرآن يوجّه وعي الإنسان

فالقرآن الكريم قد بين لنا طبيعة الإنسان وكيفية تلقّيه للحق وكيف يتعامل معه، من خلال ما ذكرنا من تلك النماذج التي نجدها حاضرة في المجتمعات الإنسانية اليوم، وتتمتع وسائل الإعلام المبرمجة والممنهجة بتأثير قوي جدًّا في تغيير وعي الناس، تعتمد على دراسات نفسية واجتماعية عميقة، مما يجعل موقفَ كثيرٍ من الناس تجاهها التسليم والاستسلام[1]. وقد صوَّر لنا القرآن الكريم هذا المشهد التضليلي للحقائق في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾(الأنعام:١٢٣)، وأمام هذا التضليل والمغالطة والتزييف للحقائق، دعا القرآن الكريم الإنسان المؤمن الواعي المتيقن إلى ضرورة مجاهدة النفس من أجل توجيه وعْيه نحو الحق، والاجتهاد في البحث عنه من مصادره الحقيقية، وعدم الاكتفاء بوسائل الترويج والتضليل، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۞ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾(القيامة:١٤-١٥).

فالقرآن الكريم هو المورد الأول في تكوين الوعي بالذّات، وبناء الشخصية الواعية بذاتها، وما يحيط بها من تحديات. وما في القرآن من أحداث تاريخية، يُعدُّ المنهج الفريد في استدراك الوعي عن طريق أخذ العبر والعظات، فهذه الرؤية التي يمنحنا إياها القرآن من أجل بناء الذهنية الواعية التي تعتمد على الاستدلال والاستقراء، من خلال التاريخ والقصص الماضية، وإسقاطها على الواقع الذي يعيشه المسلم، فمثلاً الترويج والتحريف الذي كان يمارسه زعماء قريش على الرسول ﷺ باستخدام وسائل الإعلام المتاحة في ذلك الوقت، هو نفسه الهدف الذي يروّج له أعداء الحق والفضيلة في عصرنا الحالي، فهذا الإسقاط التاريخي -كما يؤسسه القرآن الكريم- يُنمِّي الوعي ويوجهه، ليستمر المسلم المتيقن من ثقته في الله تعالى والمطمئن بإيمانه، في مواصلة دوره الدعوي، وأداء مهمته في عمارة الأرض وبناء الحضارة، وتجاوز سياسة التهجم والمواجهة.

ونجد فتح الله كولن يتحدث عن الوعي التاريخي فيقول: "الوعي بالتاريخ جسر يربط بين الماضي والمستقبل، فالأمم العاجزة عن إقامة هذا الجسر أو الحفاظ عليه؛ يصعب التنبّؤ بوجهتها ونتيجتها، ولا يمكن معرفة المكان الذي سترسو عليه سفينتها في الساحل الآخر". وقد استمد كولن الوعي التاريخي من منهج القرآن في سرد قصص الأمم السابقة والاعتبار بها من أجل مستقبل أفضل.

وقد ركز القرآن دائمًا على تحريرنا من اتباع الهوى والظن، والسير خلف الآباء دون تمحيص لما هم عليه، لكن يبدو أننا لم نستطع النَّفاذ إلى أعماق النص القرآني، بما يكفي لاستخراج رؤية تحررية من القولبة التربوية التي صاغت وجودنا المعنوي عبر حياتنا المديدة. وأعتقد أن من أولويات تجديد الوعي، التأمل فيما علينا أن نفعله في هذا الشأن[2].

وقلة الوعي ترجع لسبب الاعتماد على ظواهر الأشياء، واللجوء إلى التقليد، والجهل بمنهجية التفكير وعدم فقه الواقع، وأحيانًا ترجع للتعصُّب للرأي الفكري أو المذهب السياسي أو المنهج العلمي، كل هذه الأسباب تُعيق الفهم الواعي، والذي بدوره يُعيق البناء المعرفي للإنسان الذي يريد أن يبني الحضارة. وأخطر ما يهدد الوعي حالة "الإمَّعة" التي حذَّرنا منها الرسول ﷺ: "لا تَكونوا إمَّعةً تقولون إنْ أحسنَ النَّاسُ أحسنَّا، وإن ظلموا ظلَمنا، ولَكن وطِّنوا أنفسَكم إنْ أحسنَ النَّاسُ أن تُحسِنوا، وإنْ أساءوا فلا تظلِموا" (رواه الترمذي)؛ لأن ذلك يعتبر تعطيلاً لعمل العقل الذي أشاد به القرآن الكريم في أكثر الآيات،

واعتبر ذلك من الأسباب التي حجبت الناس عن الحق.

وهكذا نجد وعي الإنسان لذاته، يعتبر محورَ بناءِ الحضارة، أو كما يُسميها الشيخ الفاضل بن عاشور بـ"الحس الباطني أو داعية النظر"، التي تجعل الإنسان المنطلق الأول نحو تحصيل الإدراك النفسي ثم الإدراك الوجودي. ودور كلمة الوحي في بلورة الوعي والاتجاه بالإنسان نحو الوجهة الصحيحة كما يقول: "وسرُّ الحضارة الإسلامية، يبتدئ تكوُّنه في الفرد بطريقةٍ تربوية، تعتمد على إيقاظ الحس الباطني الذي يتوجه به الفرد إلى تحصيل المدركات الأولى، وهي متعلقات الغرائز الجِبلّية المركوزة في طبعه، فلا يُدخل عليه شيئًا جديدًا، ولكنه يُثير فيه شيئًا كان كامنًا، ويُبرز من ذاته معلومًا كان راكدًا خاملاً"[٣].

الإعلام والحقيقة المغيَّبة

إن ممارسة التضليل الفكري والعبث بالوعي، وتغييب الحقيقة عن الناس في عصرنا الحالي، أصبحت سمةً في المجتمعات المعاصرة التي غابت عنها المفاهيم الحضارية. وقد استخدم الإعلام بجميع أنواعه في العبث بعقول البشر وتوجيهها لخدمة أهدافٍ في غير مصلحة الإنسان، وإنما لمصالح خاصة للوصول إلى نتائج تتعارض مع الحقيقة، وترسّخ مفاهيم ضيقة وخبيثة، وتُكوّن واقعًا محدَّدًا في ذهن المتلقِّي، فيما يسمَّى بـ"الوعي المزيَّف" وتغييب الحقيقة وراء ستارٍ متعدد الألوان بحسب تغير الزمان والمكان. وهذا الواقع خرَّب مراكز القوة والفاعلية في الإنسان، فأصبح الإنسان كمن فَقَدَ بوصلة الاتجاه الصحيح من تأثير الصدمة التي استهدفت تفكيره وعقله.

مع أن هذا التضليل والتزييف للحقيقة، يُمارس بشكل مكشوفٍ ومضحكٍ أحيانًا، وبافتعال الأحداث التي لا يقتنع بها العقل والمنطق، ويُقدم للجمهور بسذاجة فكرية مجردة من المسؤولية تجاه أخلاقيات المهنة، كما أمسى الإعلام المعاصر مسألةً احترافية بامتياز لا يتصدَّى لها إلا المحترفون لتحقيق أغراضها وأهدافها. والواقع يؤكد أنه لا وجود لإعلام محايد، فإما أن يكون الإعلام وسيلة لتدجين المجتمع وتطبيع قِيَمه

المسلم الواعي إذا تعرَّض للتضليل والأذى والتزييف للحقائق، يجب أن يواجهه بمزيد من الإيمان والإصرار على مواصلة الطريق بثبات وصبر، وأما من كان ضحية اللاوعي ووقع في شباك الغدر، فيجب أن يستعيد وعيه ويستمدّ طاقته من الله تعالى.

وأخلاقه مع واقع الفساد والاستبداد، أو وسيلةً لتحرير الإنسان وصناعة الوعي الناقد القادر على البناء.

فهناك دوائر كثيرة تساهم بشكل كبير في التخلُّف وتغييب الحقيقة عن الناس وتقييد حرية الرأي، كما يقول المفكر كولن: "نحن نعيش اليوم مرحلةً من المراحل التي يتكرَّر فيها التاريخ بِعِبَره، فقد أحاطت بنا المآسي والمصائب والبلايا من كل جانب، كالزلازل والفيضانات والحرائق والضغط على الحريات وكتم الأنفاس.. ولكن رغم كل هذه المظالم والبلايا، لا زلنا نرى الساكتين والصامتين المسلوبي الإرادة، الخائفين حتى من التأوُّه أمام المصائب. ومقابل ذلك نرى صنفًا من الظالمين يظلمون الناس ويغدرون بهم، ثم يتظاهرون بالبكاء والشكاوى ليقلبوا الحقائق رأسًا على عقب، ويُظهروا المظلومين وكأنهم هم الظالمون"[٤].

فالمسلم الواعي إذا تعرَّض للتضليل والأذى والتزييف للحقائق، يجب أن يواجهه بمزيد من الإيمان والإصرار على مواصلة الطريق بثبات وصبر، وأما من كان ضحيةَ اللاوعي ووقع في شباك الغدر، فيجب أن يستعيد وعيه ويستمدَّ طاقته من الله تعالى، فهو الواهب للهداية والمعين عليها بالدعاء والتأمل في القرآن الكريم واستنباط المواعظ والعبر منه. ■

---

[*] باحث في الدراسات الإسلامية والإعجاز / الجزائر.

الهوامش

[١] تجديد الوعي، لعبد الكريم بكار، دار القلم، دمشق ٢٠١٠، ط٣، ص:١٥.

[٢] تجديد الوعي، لعبد الكريم بكار، دار القلم، دمشق، ٢٠١٠، ط٣، ص:١٠٢.

[٣] روح الحضارة الإسلامية، لمحمد الفاضل بن عاشور، المعهد العالمي، فرجينيا، ١٩٩٢، ط٢، ص:٢٤.

[٤] المؤمن لا يسقط وإن اهتز، لفتح الله كولن، مجلة حراء، العدد ١٧، ص:٢-٣.

د. الشريف حاتم العوني*

> إذا تلاشى الإخلاص وضاع اليقين لدى الفرد، فقد تدحرج في فراغ مخيف، إذ أقواله لا تتجاوز حنجرته، وأفعاله لا تعبر عن أي معنى نبيل.

الموازين

حقوق أهل العلم على الأمة

إن الحديث عن حقوق أهل العلم، وعن واجب الأمة تجاههم، حديث جليل؛ لأنه حديث عن أحد أهمّ الحقوق وأعظم الواجبات، بل هو حديث عن عزة أمةٍ ورفعة شأنها، أو عن ذلّتها وهوان أمرها، بل عن بقائها أو زوالها.

ولكي لا يُظن بهذا الكلام أني أبالغ، فلنأخذ الحديث من آخره، من أن الحديث عن حقوق أهل العلم، وعن واجب الأمة تجاههم، هو حديث عن بقاء الأمة أو زوالها. فهل يشك عاقل في أن العلم الصحيح هو والحق لفظان مترادفان؛ فلا يكون العلم علمًا صحيحًا إلا وهو حق. وعليه، فالعلم هو الحق، وأما الباطل فإنه هو الجهل. ثم هل يشك عاقل أنَّ الحق هو الثابت الباقي، وأن الباطل هو الزائل الفاني، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾(الإسراء:٨١).

إذن فالعلم الذي هو الحق، به يكون الثبات والبقاء، والجهل الذي هو الباطل، به يكون الزوال والفناء، ولا شك أن العلم والجهل وصفان لا قوامَ لهما بذاتهما، إنما قوامهما بمن يتَّصف بهما، فلا علم إلا بعالم، كما أنه لا جهل إلا بجاهل. ومعنى ذلك أنَّ العلماء الذين حملوا الحقَّ، إذا علّموه ونشروه، فقد علَّموا الحق ونشروه، فكان ذلك إشاعةً للحقِ في الأمة، ذلك الحق الذي هو الثبات والبقاء لها. وأمَّا إذا أُضيعَ علمُ العلماء، فاستبدلت الأمةُ الجهل بالعلم، أي الباطل بالحق، فقد قضت على نفسها بالزوال والفناء.

أرأيت؟ كيف كان الحديث عن حقوق أهل العلم على الأمة هو حديثنا عن بقائها أو زوالهما!

أما وقد تَبيَّنَت صحة ذلك، فلا حاجة بعده إلى أن أبيّن لك أن ذلك الحديث هو حديث أيضًا عن عزة الأمة ورفعة شأنها، أو عن ذلتها وهوان أمرها؛ لأن العزة والرفعة لا تكون بغير الثبات والبقاء، ولأن الذلة والهوان هما الزوال والفناء، أو "إن لم تـعِ ما الذل والهوان"، فهما سبيلا الزوال والفناء.

إذن، الحديث عن حقوق أهل العلم على الأمة، هو حديث -في الحقيقة- عن حقوق الأمة على الأمة؛ فالأمة بحفظ وأداء حقوق علمائها تقوم بما يحفظ لها بقاءها وثباتها، ويؤدي عنها واجبَ عزتها ورفعة شأنها. ونحن عندما نتحدث عن حقوق العلماء على الأمة، إنما نتحدث عما يعود بأعظم النفع والخير على الأمة نفسها. فليس أداء تلك الحقوق مُكوسًا وضرائب ينتفع بها العلماء وحدهم، ولا هي تفضُّلٌ وتبرُّعٌ من الأمة لعلمائها، بل هي قواعد العز والتمكين للأمة، وأسس التقدُّم والرقي، وأصول الحضارة والعلم. فأول منتفعٍ بأداء حقوق العلماء هو المؤدي لها، وأول خاسر هو المضيّع لها.

من هنا كان الحديث عن حقوق أهل العلم حديثًا جليلاً. ومن هنا أيضًا نعلم أن الحرص على أداء حقوق أهل العلم ينبغي أن يكون نابعًا من حرص الأمة على بقائها وعزتها، لا أن يكون نابعًا فقط من الشعور بواجب الشكر لمن أحسنَ إليها وإن كان هذا حسنًا، ولا أن يكون نابعًا من الاعتراف بالفضل لذوي الفضل وإن كان هذا جميلاً، ولا من غير ذلك وحده، بل لا بد من أن نستشعر ونحن نؤدي حق العالم، أننا بأدائه نؤدي حق أنفسنا، وأننا نحن أول من سيجني الفائدة الكبرى من هذا الأداء لحق العالم.

الحديث عن حقوق أهل العلم على الأمة، هو حديث عن حقوق الأمة على الأمة؛ فالأمة بحفظ وأداء حقوق علمائها تقوم بما يحفظ لها بقاءها وثباتها، ويؤدي عنها واجبَ عزتها ورفعة شأنها.

فإذا ما أردنا -بعد ذلك- أن نذكّر ببعض حقوق أهل العلم، فإنني أبدأ بحق يؤسفني أن أبدأ به، وهو أن أول حق العالم على أمته هو حق المسلم على المسلم. نعم، لقد بلغ ببعض الأمة، بل ببعض خواص الأمة، أن ضيّعوا من حقوق العلماء حتى حقَّهم في الأخوة الإسلامية، فظلموهم وخذلوهم وقت حاجتهم إليهم، وأسلموهم إلى أعدائهم، واستباحوا غيبتهم بالشتم والوصف القبيح، وأساؤوا فيهم الظنون! مع أن أضدادَ ذلك كله هو من حق المسلم على المسلم. فأول حق العالم على أمته المسلمة، أن يوفُّوه حقَّه الإسلامي العام، وأن يُنزلوه منزلة بقية المسلمين، بل العدل يقول إن حق العالم من ذلك الحق العام أمكن، وإثمَ الإخلال به أكبر، وقُبحَ التقصير فيه أشد؛ لأن حقه لا يقتصر عليه (أولاً)، ولأن حاجة الناس إلى القيام به أشد (ثانيًا).

ثم ثاني حقٍّ ينبغي أن يؤدى للعالم: أن يُقَرَّ له بالتقدُّم والتميز على غيره من الناس في العلم الذي تقدَّم وتميز به، بل إن هذا الإقرار هو باب الوفاء للعالم بحقه، وبغيره لن يعطى العالمُ شيئًا من حقوقه؛ لأن هذا الإقرار يستلزم عند كل العقلاء قدرًا من التقديم والتقدير بحسب ذلك التقدم والتميز، ولأن عدم الإقرار به لن يدع للعالم عند الجاحد لتقدمه وتميزه، أيَّ داعٍ للتقديم والتقدير.

ولذلك، فإنه من الضروري في هذا الباب، أن يكون عند الناس إقرارٌ بتقدُّم العلماء عليهم وتميزهم عنهم،

وإلا فعلينا أن نطوي صفحة الحديث عن حقوق العلماء على أمتهم.

وهذا ينبهنا إلى أن السعي إلى تحقيق هذا الإقرار من الأمة لعلمائها، والبحث في أسباب تخلُّفه عند كثيرين منها، والتأمل في دواعي قصوره عند أكثرها، أَوْلى ما يجب التهمُّم به، وهو الخطوة الأولى لأن تعرف الأمة حقوق علمائها، لتعرف بعد ذلك سبيلَ بقائها وعزتها ورفعة شأنها.

ولا شك أنه قبل ذكر علاج ظاهرة ما، لا بد من معرفة أسبابها، فما هي أسباب هذه الظاهرة؟ وهي عدم الاعتراف لعلماء الشريعة بتقدمهم وتميزهم في علم الشريعة.

إن هذا الموضوع لموضوعٌ حقيقٌ بطول النظر والتأمل، ويستحق أخذ آراء العلماء والباحثين فيه؛ لأهميته، ولتعدد أسبابه وكثرتها في ظني. غير أني أنبِّه هنا، إلى بعض الأسباب، والتي منها ما هو شخصي نفسي لا يعمُّ كلَّ من اتصف بتلك الظاهرة، ومنها ما هو سببٌ عامٌّ يشمل جميع أو غالب المتّصفين بها. فمن تلك الأسباب:

١ - الغرور والتعالم

وهو داء خطير يمنع من التعلُّم؛ لأنه يُوهِم صاحبه بأنه ليس في حاجةٍ إلى عِلْم غيره من العلماء، ويكفي هذا الداء سوءًا أنه لا يرضى أحد أن يوصف به، ولا الواقع فيه. ولذلك فإن من خطورته أن المصاب به لا يشعر أنه مصاب به، وإلا لو شعر بمُصابه به، لسعى في الاستشفاء منه. وهذا يعني أن علاج هذا الداء، يبدأ بإشعار صاحبه بنقصه وقصوره وقلة علمه. ولذلك، طرائقه التي لا تخفى على الحكيم، والتي تختلف من شخص إلى آخر.

ويكثر هذا الداء في عصرنا بين طبقات مختلفة من الناس، وأكثرهم ضراوةً فيه صنفان منهم:

أ- مُثقّفون وعلماء في غير العلوم الشرعية: ظنوا أن علمهم الذي تعلّموه، وذكاءهم الذي قادهم إلى التفوق في علومهم -ربّما- كافٍ لأن يزاحموا علماء الشريعة علمهم الذي تخصّصوا فيه، ناسين أو متناسين أن الواحد منهم لا يحق له أن يزاحم علماء كل العلوم التي لم يتخصّصوا فيها، فلِمَ جعلوا من علم الشريعة وحده حمىً مستباحًا يَلجُه من شاء متى شاء؟!

ب- طلبة العلم الشرعي الذين لم يتأدبوا بأدب العلم الذي تعلّموا طرفًا منه: وهؤلاء -غالبًا- إنما داؤهم الأكبر، هو طلب العلم للدنيا (للمال أو الجاه)، فدواؤهم هو الإخلاص؛ فإذا أخلصوا في الطلب، ظهرت آثار العلم عليهم والتي من أبرزها التواضع وهضم النفس. وما أبعد أهل الإخلاص عن الغرور.

٢ - الجهل بحقيقة العلوم الشرعية

العلوم الشرعية هي علوم عميقة في غاية العمق، بل هي أعمق العلوم على الإطلاق، ولذلك اختص الله تعالى بها أكمل الخلق وأذكى الناس وأعقل البشر، وهم أنبياؤه ورُسُلُه، وكان ممن اختصه الله تعالى بعلوم شرعه، خاتمُ رُسله وإمامُ أنبيائه وسيدُ ولد آدم؛ محمد ﷺ الذي كان أعلمَ الناس بالله تعالى وبأمره ﷻ. ومع عظيم علم نبينا ﷺ بشرع ربه ﷻ، فقد أُمر بالضراعة إلى ربه سبحانه أن يزيده منه علمًا، فقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(طه:١١٤). فأيُّ علم أعمق من علم خصَّ الله تعالى به مصطفاه من خلقه، فهو ﷺ أعلم الناس به. ثم مع عظيم علمه به، يأمره ﷻ بطلب الزيادة منه.

ومع عُمق علوم الشريعة هذا العمق العظيم، نجد الناس متهافتين في الخوض فيها، جهلاً منهم بعمقها. ولذلك فإنك ترى الناس لا يقبلون من غير الطبيب أن يمارس مهنة الطب، ولا يقبلون من غير المهندس أن يمارس مهنة الهندسة؛ لأن هذين العلمين عندهم علمان تخصُّصيّان لا يتقنهما إلا من تخصَّص فيهما، وهكذا بقية العلوم الكونية. فإذا جاؤوا للعلوم الشرعية، سمحوا لأنفسهم أو لغيرهم ممن لم يتخصَّص في دراستها على يدي أهلها، بأن يتكلّم ويخوض فيها. ونحن نطالب هؤلاء أن يُنصفوا علوم الشريعة فإن لم يعترفوا لها بأنها أعمق العلوم، مع أن هذا هو الواجب عليهم لو أنصفوا، فلا أقلّ من أن يضعوها في مصافّ التخصُّصات الأخرى التي يُعترف لها بأنها علومٌ عميقة، لا يُحسنها إلا من أفنى عمره واجتهد في تحصيلها.

٣- تشويه صورة علماء الشريعة

يتعمَّد بعض أعداء الإسلام تشويه صورة علماء الشريعة بكل الوسائل المتاحة لهم؛ في وسائل الإعلام المختلفة، وفي القرارات ذات التأثير.. وذلك من خلال سعيٍ حثيث منظَّم مدروس من زمن طويل، يتناول سعيهم هذا جوانب مختلفة، من تجفيف منابع العلم الشرعي، وصدِّ الناس عن تعلُّمه، وإضعاف صلة الناس بعلمائه، وانتقاص أقدار حملته بكل مكر ودهاء.. فعلى المسلمين أن يعرفوا أعداءهم الحقيقيين، فلا يمكِّنونهم من وسائل إعلامهم؛ أولاً يجعلون وسائلَ إعلامهم وسائلَ مأمونة للتلقي والتأثر، كما أنه ينبغي عليهم عدم الرضوخ للقرارات التي يتخذها أعداؤهم وسيلةً لتحقيق أهدافهم فيهم، بل عليهم فَضْحُ خفايا تلك القرارات لعامة المسلمين، لكي يقف الجميعُ ضدها، ولكي لا تطويهم بخُبْثِها ومكرها.

٤- قلّة عدد علماء الشريعة

قلّة عدد علماء الشريعة حقًّا، مما تحقق في المسلمين ما أخبر به النبيُّ ﷺ من أنهم اتخذوا رؤوسًا جُهالاً، فضلّوا وأضلّوا. ولا شك أن هؤلاء الرؤوس الجُهَّال الذين يلبسون لباسَ أهل العلم، قد أعانوا على أن لا يعرف الناسُ أهلَ العلم حقًّا، وصدُّوا الناسَ عن علمائهم، ثم هم لجهلهم لا يجد الناسُ لهم مزية يستحقون بها الإقرار لهم بالعلم والتقدم فيه، حتى إذا رأى الناسُ عالمًا حقًّا قاسوه على الجاهل فاختلط الحابل بالنابل. وهذا يُبيِّن عظيمَ حاجة الأمة إلى أن تعتني بالعلم الشرعي، وبالبقية الباقية من علمائه؛ لكي يكون الرؤوس رؤوسًا حقًّا علماءَ ربّانين.

فنحن في هذه الظروف، أولى ما نكون إلى نشر العلم الشرعي، وإلى حث الناس على تعلّمه، وتهيئ كل السُّبُل الميسرة على الناس تحصيله، كما أنه يبيّن أيضًا وجوبَ تصديرهم أهل العلم وإبرازهم للناس، فإن لم يُصدِّروا فعلى أهل العلم أن يتصدّروا، وأن يدلّوا الناس إلى الهدى والعلم الذي وهبهم الله تعالى إياه.

إن هذه الأسباب -في ظني- هي أهم أسباب ظاهرة عدم أو ضعف اعتراف عامة المسلمين لعلماء الشريعة بالتقدم والتميز في علم الشريعة، وهي أسباب يمكن مقاومتها.

فإذا ما أقرَّ الناس للعالم بالتقدم والتميز، فلا يحتاج غالبهم حينها إلى تذكيرهم بواجب العالم عليهم، ولن تكون أخطاء آحادهم في التقصير في حق العالم، إلا فلتةً غير مقصودة سُرعان ما يحرص الواحد منهم على استدراكها إذا ما أدرك أنه حاد عن أداء واجبه، حيث إن الإقرار بالتقدم والتميز يقتضي الاحترامَ والإجلال، والتأدُّب في المقال والفعال، وإحسانَ الظن بالعالم، وتَرْكَ جداله ومُماراته بغير علم، وكما قال القائل:

وأكثر بَخسًا للفضيلة موقعٌ
يُجادلُ أهلَ العلم فيه جَهُولُ

هذا حق أهل العلم عامة، فكيف إذا كانوا علماءَ بالله تعالى وبأمره؟! فهؤلاء هم أولياء الله الذين مَن عاداهم فقد آذنَ الله تعالى، وبارزه بالعداوة والحرب، والذين هم ورثة الأنبياء، وسادة الأمة، وأدِلّاء العالمين إلى سعادة الدنيا والآخرة.

هُمُ أنجُمُ الله في الدنيا إذا طلعوا
وحُجَّةُ الله في الأُخرى إذا نُشِروا
هُمُ زينةُ الناس هُمْ نورُ الوجود هُمُ
روحُ الحياة هُمُ ريحانُها العَطِرُ
هُمُ أولياءُ النُّهى تحيا العقولُ بهمْ
كالغيث يَخْضَلُّ من وَسْمِيّهِ الشجرُ
وإنما هذه الأيامُ مزرعةٌ
الناسُ غرسٌ لها والعالِمُ الثمرُ ■

(*) كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى/ المملكة العربية السعودية.

إنّ العلماء الذين حملوا الحقّ، إذا علّموه ونشروه فقد علّموا الحق ونشروه، فكان ذلك إشاعةً للحقّ في الأمة، ذلك الحق الذي هو الثبات والبقاء لها. وأمّا إذا أُضيعَ علمُ العلماء، فاستبدلت الأمةُ الجهل بالعلم، أي الباطل بالحق، فقد قضت على نفسها بالزوال والفناء.

هشام الحداد*

انعتاق الروح

لـولا الـروح لمـا كانت الحرية. جثة من الطين كان هذا الإنسـان، فمـا إن نفخت فيـه الـروح، حتـى تحـرر مـن ترابيته، وسـرت فيه الدمـاء، وتحركـت فيـه المشـاعر، وظهـرت عليـه آثـار القـدرة والإرادة. فواهمٌ إذن من يبحث عن الحرية خارج وصفات الروح.

ومرة أخرى مدرسة رمضان هي التي تُبادِرُنا وتطرق علينا شرودنا، وتنبّهنا إلى حقيقة التحرر في زمن استعباد الفناء، والزَّبَدِ الجفاء، والانصياع لأمراض الباطن المزخرفة بألـون الطِّيْف الممسـوخ. انظر إلـى الصيام كيف يحررك من نفسك وينصرُك عليها، ويجعلك تمسك بلجامها لتقودها إلى الخير.

تـذوّقْ طعـم الصـوم لا بمـذاق الجـوع، ولكـن بمـذاق الانقطاع عن السـراب الخـادع، والانفـكاك مـن أصفـادٍ تمـرّغ أنـف صاحبهـا فـي وَحْـل القلـق القهري، والتخلص من وَهْم الكمال الذاتي الذي يزين بريقَه الرضا عن خطط النفس الحائرة بيـن الانتصـار للشـبهة أو الانتصـار للحق، الانتصـار للحب أو الانتصـار للمتعة.

لكـي تسـير إلـى حيـث النور الـذي تتلمس به البصيرةُ هداها بثباتٍ؛ كم أنت مفتقـر أيهـا الإنسـان إلـى الحريـة، وفي حاجة ماسـة إلى الحرية كي تتخلص من تلـك الأغـلال التـي تـكاد تُبين، تَشـدُّك إلـى الأرض وتُثْقِل خطاك عـن الانطلاقة المتجددة الحالمة بانتشال الذات من الصورة إلى الحقيقة.. في حاجة إلى الحرية كـي تكـون قـادرًا علـى الفـرار وطلب اللجوء إلـى من يحميك حقًّـا ممن يريدون سَـجْنَك بلا قضبانٍ في ظلمات الزَّيف وغَياهِب الغفلة ومتاهات الشـقاء ومضايق المادية؛ ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾(الذاريات:٥٠).. في حاجة إلى الحرية كي تستطيع الرفرفة بانسـياب إلـى محبوبـك الذي يَرْقُب صحوَتَك فتُهْرَع لتُنِيخَ المطايا ببابه المفتوح على مصراعيـه، تناجـي وتطلب الصفح الجميل؛ ﴿وَإِذَا سَـأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيـبٌ أُجِيـبُ دَعْـوَةَ الـدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(البقرة:١٨٦)، رغبًا ورهبًا ترجو رضاه الأبدي بعبودية متحررة صدقًا وعدلاً من شهوات منحطّة ومن همزات الشيطان الجاثمة

على منابع الخير فيك، تصدّها صدًّا وتحبسها كي لا تنهمر فتملأ الأجواء عبقًا يفوح من أزهار الفطرة السوية؛ ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(الروم:٣٠).

إلى الحرية التي تجعلك محلِّقًا نحو أسرار ذاتك فكرًا وشعورًا وسلوكًا، لتُميط اللثام عن جذوة الخير القابعة تحت دنس الخطايا والمعاصي في الرُّوع الضعيف بداخلك.. وترفع الغطاء الأسود عن نداء حب الخير الكامن في سُوَيداء الضمير الصّاحي، لتسمع صوت الصفاء المزيَّن برداء الانكسار لكبرياء الرحمن، والمعطَّر بريح الطهر والنقاء؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾(الأعراف:٢٠٦).

في حاجة إلى حرية تُفصح لك أن عبوديتك للسماء تحرُّر وانعتاق، وأن عبوديتك للأرض تكبيل وانغلاق. ألم تر أن خالق الأجساد من طين، هو الذي حررها من الجمود والصنمية الترابية بالنفخ من روحه، وكرَّمها بالسجود الملائكي؛ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(الحجر:٢٩). النفخة الإلهية، لكي تكون حرًّا مختارًا، والسجود الملائكي، كي توقِن أن حريتك في عبودية الرِّفْعة والكرامة للواحد الأحد، وفي طهر ونقاء الساجدين، كي تعود إلى الرشد كلما أيقنت أنك في عبودية الذِّلة والهوان لِشُرور الجوف المريض بأهواء العميان عن رقابة الذي يمهل ولا يهمل.

أيها الصائم التائق لرضى الغفور الشكور، تلمَّس نور اليقظة القلبية ببصيرة التجرد من الشهوات الدنية، تمرَّدْ على قانون الغاب الذي تعلَّمَتْه أحشاء النفس الأمارة بالسوء، وابعثْ رسائل التغيير إلى كل الخلايا النابضة بأسرار الحياة الخاضعة، ابتداءً لِسرّ التوحيد الرباني؛ ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾(الأعراف:١٧٢).

تفحَّصْ علل الباطن، فإنها سرُّ اللؤم والغرور والكِبْر، افضحْها بين جنبيك ولا تتركْ لها حظًّا كي تورّي عنك، قُدْها إلى مِصحَّة الخلاص في زمنٍ طيّب مبارك لا تُعافى منه تلكم الأسقام إلا في ثناياه وهُنَيْهاته.. اجلِسْ على كرسي الاعتراف والصّراحة أمام مرآة الضمير المستفيق كي تكتشف الغشاوة الخفيَّة وهي تحجب عنك حقيقة

جثة من الطين كان هذا الإنسان، فما أن نفخت فيه الروح، حتى تحرر من صنميته وترابيته، وسرت فيه الدماء، وتحركت فيه المشاعر، وظهرت عليه آثار القدرة والإرادة. فواهمٌ إذن من يبحث عن الحرية خارج وصفات الروح.

الوَهْم الذي يضلُّك عن الاعتذار.. أَضِئْ مِشْعل الوحي في دياجي الشعور بالخوف من التشريح على مأدُبة القرآن الشافي الكريم.. أقبِلْ ولا تخفْ؛ ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾(طه:٢١)، لكن بباطنٍ جديد راضٍ مطمئن سعيد.

مدرسة رمضان الذي ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾(البقرة:١٨٥)، فرصةُ إعلان حركة الاستقلال النفسية عن جشع التعلق بالدنيا الفانية، وعن الوسواس الذي ترعاه مشاعر الأَثَرة والأنانية.. هي وجهة النادمين على دخولهم معتَرك عصور الانحطاط، هي ملاذ الخائفين من ذكريات إسعاد إبليس، هي محط أنظار القلوب المكدَّرة بوخْز الغِلّ والغش والهوى، ترجو طهرها، وغسل عروقها من مُخلّفات الدمار الباطن. هكذا تتحول الأرواح فيها إلى مصابيح متشوقة إلى نور يتوهج في داخلها بأسرار التوحيد معترفةً بما مضى من الخطيئة: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(الأنبياء:٨٧)، تتوق حينها للترقي في مدارج السالكين إلى التواب الرحيم.

أيها السائر إلى الله، لا محالة تزوَّدْ بالحرية في مدرسة عبادة التكريم، فإن المسير شاق وطويل، والبرزخ القبري موحشٌ، وهول المطلع الأخير عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين.. ارفعْ راية النصر وارْكُزْها بعزم ويقين على تراب نفسك المسوَّد بأدران اللسان وأوساغ الجنان؛ لأنك فعلاً تراب، لولا الروح لما سرتْ فيك الدماء ولا عرفتَ أن الخضوع للواحد المعبود يحرّرك من قيدك الذي تتوهم أنه لا ينكسر. ■

(*) كاتب وأديب مغربي.

السنوسي محمد السنوسي*

ما يَنقصنا نحن المسلمين اليوم، هو سلوك صادق، وحال خالصة، وحياة قلبية عميقة وواسعة؛ توجّهنا في قيامنا وقعودنا، وترشدنا في حِلّنا وترحالنا.

الموازين

منظومة القيم
وأثرها في صياغة الحياة

تُمثِّل "القيم" في أي نموذج فكري أو فلسفي لُبّه ومحوره ومرتكزه الأساس، فهي التي تتفرع عنها بقية التفاصيل، وتنساح من بؤرتها سائر المقولات. فمعرفتنا بالقيم تبين لنا جوهر هذا النموذج، وتلخص لنا رؤيته العامة وخطوطه العريضة، كما تكشف عن نقاط تميز هذا النموذج وتمايزه عن غيره من النماذج والفلسفات.

و"القيم" كما يرى الدكتور محمد عمارة هي: "المعايير الثابتة الخالدة، التي تمثل موازين صلاح الأقوال والأفعال والأشياء. ولم تتميز بمبحث خاص في فلسفة الإسلام -مع أنها تميزت بمباحث خاصة في فلسفات الحضارة الغربية- لأنها في النظرة الإسلامية بمثابة الروح السارية في كل شيء، فهي بديهة لا خلاف عليها، وروح سارية لا سبيل إلى إنكارها، ومن أراد تلمسها في الأنساق الفكرية الإسلامية، فعليه النظر في كل أبواب علوم وفنون تلك الأنساق".



مكانة القيم

القيم في الحضارة الإسلامية -بمعناها المتكامل، أي الجانب الروحي والمادي- لها مكانتها الأساسية ومنزلتها الرفيعة، وبهذه القيم تتحدد باقي مجالات الحضارة وتكتسب بصمتها المتميزة والمميِّزة.

ولذلك يرى المستشرق الدنماركي "جوستاف فون جرونيباوم" أن التأثير الحضاري للإسلام، هو في تغييرات أساسية أحدثها في مجال القيم بالنسبة لما كان سائدًا قبله بشبه جزيرة العرب في ظل الوثنية. ومحور هذه التغييرات تحديد هدف الحياة وغايتها، من خلال الإجابة على ثلاثة أسئلة: كيف تعيش حياة صحيحة؟ كيف تفكر تفكيرًا صحيحًا؟ كيف تقيم نظامًا صحيحًا؟ ويرى أن الإسلام قد قدَّم أجوبة لهذه المشكلات والقضايا في التربية الصحيحة للفرد، والترتيب النسبي لمناشط الإنسان (الواجب، المندوب، المباح، المكروه، الحرام)، وتحديد القصد والمجال بالنسبة لسلطة الحكم أو ممارسة القوة السياسية. وكان من ثمار هذه القيم، أن استحدث الإسلام واجبات على عاتق الفرد، أو عَمَد إلى تعديل واجبات قديمة، كما أنه قرر حقوقًا جديدة تتناول شتى مجالات السلوك الإنساني، الفردي أو الاجتماعي. وقد أدى ذلك إلى تقويم أية خبرات حضارية سابقة أو لاحقة في هذا الضوء، بحيث تكون متجاوبة مع معايير الإسلام ومقاصده.

القيم ومجالات الحياة

لقد امتدت القيم التي وضعها الإسلام لتصبغ مجالات الحياة كافة بصبغتها وطابعها الخاص، ولتنظم سلوك الإنسان على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع والدولة. يقول الدكتور محمد فتحي عثمان: "ارتبطت منجزات الحضارة الإسلامية بالقيم الإنسانية التي دعا إليها، وقدَّم نظام الوقف شواهد معبرة لمؤسسات اجتماعية دائمة قامت على تحقيق الخير والمعروف".

وإذا كانت ثمة حضارات تصطنع تناقضًا بين الجانب الروحي أو المعنوي، والجانب المادي من الحضارة، بحيث تُغلِّب هذه الحضارةُ أو تلك أحدَ الجانبين على الآخر، فإن الإسلام يجمع بينهما في تكامل وإن كان يُقرر

القيم هي المعايير الثابتة الخالدة، التي تمثل موازين صلاح الأقوال والأفعال والأشياء، ولم تتميز بمبحث خاص في فلسفة الإسلام، لأنها في النظرة الإسلامية بمثابة الروح السارية في كل شيء.

أولوية الجانب الروحي، ويعطيه درجة أعلى من الجانب الآخر. ومن هنا تأتي أهمية القيم في الحضارة الإسلامية.

وثمة حقيقة مهمة وهي أن الإنسان -بكل الإنتاج المادي الذي ينتجه- يمكن أن يهبط أسفل سافلين إذا تخلَّى عن القيم التي تجعل الإنسان إنسانًا وترفعه عن مستوى الحيوان.

وفي سبيل إيضاح مكانة القيم في الحضارة الإسلامية، ثمة سؤالان من المهم أن نتعرض للإجابة عنهما ولو بإيجاز، وهما: ما مصدر القيم في المفهوم الإسلامي؟ وهل هي ثابتة أم تتغير؟

تُعَدّ مسألة مصدر القيم مسألة أساسية في تحديد مفهوم القيم ومجالاتها، وسائر الإشكاليات التي تتعلق بها. وفي المفهوم الإسلامي فإن "قيم المجتمع الإسلامي تنبثق من مصدرين أساسيين هما كتاب الله، وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام"؛ فالقرآن الكريم والسنة النبوية يصوغان العقل المسلم، ويحدِّدان له طريقة التفكير والحُكم على الأشياء، ومنهج التعامل مع الآخرين، لأن الإسلام منهج شامل متكامل جاء لسعادة الناس في الدنيا والآخرة، ولم يكن ليترك الإنسان يتخبط في دياجير الضلال، ويشقى بمتاهات الأفكار والفلسفات.

فهداية الوحي هي التي رشَّدت العقل ومنحته مفاتيح قراءة الكون والحياة منذ النشأة الأولى، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣١)، كما منحته القِيمَ الضابطة التي تؤطِّر أنشطته وسعيه الإنساني في المجالات المتعددة، فكان العقل المسلم -الذي جاء ثمرةً لهدايات الوحي- عقلاً، يقظًا، واعيًا، مسؤولاً، غائيًا، تعليليًّا، تحليليًّا، وبرهانيًّا، واستقرائيًّا واستنتاجيًّا.. يستكشف العلل والمقاصد، ويتعرف على الأسباب،

ويدرك أن الله ﷻ لم يخلقنا عبثًا. وما لم يدرك العقل ذلك ويتحقق به، يصبح صاحبه كلاً معطَّلاً، يصعب عليه التعامل مع الحياة والأحياء، وتغيب عنه مفاتيح عالم الشهادة، ويفتقد القدرة على تسخير ما هيَّأه الله له، ويعجز عن حمل أمانة المسؤولية التي عجزت السماوات والأرض والجبال عن حملها.

أما الحضارات والفلسفات الأخرى، فلأنها مقطوعة الصلة بالله سبحانه وبمنهجه، فإنها ذهبت إلى أن مصدر القيم هو الإنسان؛ إذ هي لا تتصور وجود "سلطة" فوق الإنسان من شأنها أن تحدد له ما يجب أن يفعل وما لا يجب أن يفعل.

ويوضح الدكتور أكرم العمري هذه النقطة الجوهرية قائلاً: "قضية مصدر القيم وقضية نسبية القيم انبثقت من دراسات حاولت أن ترد المركَّب إلى البسيط، وأن تنظر إلى التاريخ الإنساني من خلال القبائل البدائية، وهذه مسألة خطيرة رفضتها عدة تيارات فكرية وفلسفية في الغرب نفسه. من هنا ظهرت فكرة الاعتقاد بأن الإنسان هو مصدر القيم، وبرزت فكرة إيجاد "الدين الطبيعي" عن أوجست كونت في أواسط القرن التاسع عشر؛ حيث قال بأنه يمكن أن نجد أخلاقًا نحددها بأنفسنا، ودينًا ندين به ويكون دينًا طبيعيًا يقوم على أساس العقل".

القيم ثابتة ومطلقة

إذا كانت الحضارات والفلسفات المادية ذهبت إلى أن مصدر القيم هو الإنسان، فإن ذلك اقتضى منها بالضرورة أن تعتقد أيضًا بأن القيم متغيرة تبعًا لتغير مقاييس العقل الإنساني، وتغير الظروف المؤثرة عليه عبر الزمان أو المكان؛ فما هو جائز عن قوم، ممنوع عند آخرين، وما هو مستقبَح في نظرية أو فلسفة، يكون مستساغًا وربما يكون مطلوبًا وبشدة عند أخرى.

أما في المفهوم الإسلامي الذي يقرر أن مصدر القيم هو ما شرعه الله لعباده من منهج فصَّله في القرآن الكريم وسنة نبيه ﷺ، فإن القيم ثابتة ومُطْلَقَة لا تتغير بتغير الزمان أو المكان أو الأشخاص، ولا تعرف التلوُّن ولا النِّسْبِيَّة. يقول أحدهم في صراحةٍ لا يُحسَد عليها: "القِيَمُ تختلفُ بمختلف المجتمعات والأزمنة، ولا علاقة لها بتقدُّم أو تأخر؛ فالقِيَم محايدةٌ في الغالب، بل هي ذلك المحايد غير الفاعل، غير الإيجابي، بل والسلبي الذي يتأثر -دومًا- بكل المتغيرات حوله". لكن فاته أن يسأل نفسه: متى كان "الكذب" فضيلة من الفضائل؟! وهل صارت "سرقة الأموال أو الأعراض" أمرًا مباحًا عند أي أمة من الأمم عرفها التاريخ؟

إن "شرب الخمر"، ولأنه يُذهب بـ"العقل" الذي هو شرف الإنسان، وعلامة تَميُّزه عن الحيوان أو النبات أو الجماد، كان عملاً مستهجَنًا عند العرب حتى قبل الإسلام، وقد حرَّم بعضهم على نفسه شرب الخمر؛ لما رأى من آثاره المزرية بالإنسان وهيبته وسط قومه.

كما أن "الزنا" كانت تأباه الحرائر من النساء في الجاهلية، حتى إن هند بنت عتبة سألت -مستنكرةً- في بيعة النساء "أَوَ تزني الحرَّة؟!".

ولذلك لم يكن عجبًا أن يقول النبي ﷺ عن رسالته: "إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق"؛ فرسالته ﷺ لا تُنشئ أخلاقًا جديدةً مغايرة بالكلية لِمَا كان معروفًا قبلها، بقدر ما تُتمم أخلاقًا عرفتها البشرية منذ أبيها آدم عليه السلام، فكيف يقال بعد ذلك إن الأخلاق "تختلف بمختلف المجتمعات والأزمنة"، كما يزعم أحدهم؟

وفي ملاحظة عميقة يوضح الدكتور الدجاني أن المصدر الإلهي للقيم وثباتها، يجعلان لها فاعلية قوية في حياة الفرد والمجتمع، فيقول: "تتميز القيم الدينية الروحية بأن مصدرها وحي إلهي، وأنها تعتمد مقياسًا ثابتًا لا تهزُّه النسبية، وأنها تقترن بفكرة الثواب والعقاب في حياة الإنسان على الأرض وفيما بعد هذه الحياة في دار البقاء. ومن هنا تأتي قوة تأثيرها في دائرتي المجتمع والفرد على السواء، فهي في المجتمع تحكم العلاقات بين الأفراد وتوجهها، وهي في الفرد تحيي ضميره وتصل بينه وبين خالقه في علاقة خاصة، يعبد الله فيها كأنه يراه كما جاء في حديث الإحسان".

القيم والآخَر.. شاهد من التاريخ

من الصعب اختبار النموذج القِيَمي لنسق فكري ما، دون النظر في كيفية تعامله مع الآخر المختلف معه، أمَّا رقي هذا النموذج مع أبنائه، فلا يصلح دليلاً صادقًا للاختبار؛

فكل الحضارات والأنساق الفكرية تعلن أنها تبتغي رفاهية أبنائها والرُّقي بهم في مدارج القيم والخير والجمال، لكن قليلاً منها يلتزم الأهداف ذاتها فيما يخص الآخرين.

بل نرى -وما أكثر شواهد التاريخ على ذلك- أن بعض الحضارات أو الأنساق الفكرية التي تُعْلي من قِيمة الإنسان وتحترم حقوقه وتصونها، إنما تُقْصر ذلك على إنسانها فحسب، لتمارس نقيض ذلك ضد الإنسان الآخر، ولو التزمت الحضارات معيارًا واحدًا ثابتًا بحق الإنسان -مطلق الإنسان- لما كانت موجات الاستعباد والغزو والاستنزاف، التي لا تكاد حقبة تاريخية تخلو منها.

ولا شك أن الحضارة الإسلامية قطعت شوطًا كبيرًا مميزًا في العناية بالإنسان، مطلق الإنسان، وهي تبدو ذات سجلٍّ ناصع في هذا المضمار، سواء مع المخالفين الذين سكنوا أرضها وتعايشوا مع نسيجها الاجتماعي، أو مع المخالفين الذين التقت بهم تحت ظلال السيوف في ساحات القتال والمواجهة.

لقد نبغ عشرات اليهود والنصارى في سماء الحضارة الإسلامية، وتقلّدوا مناصب عالية في إدارة الدولة، وحين ضاقت إسبانيا باليهود بعد سقوط الأندلس في يد النصارى، لم يجد اليهود لهم ملجأ إلا أحضان الدولة العثمانية، فآوتهم بعد أن كادوا يُمحَون من التاريخ ويكونون نَسْيًا مَنسيًّا.

وإن نظرةً واحدةً على مئات الصفحات التي سجلها منصفو المستشرقين عن الاختلاف الجذري بين سلوك المسلمين وهم يفتحون البلاد ليزيلوا الطغاة، الذين يَحُولون دون وصول كلمة الله للناس صادقةً مدويةً، وبين الغزاة المحتلين من الصليبيين حتى وهم يدخلون مدينة القدس التي يزعمون أنها مقدسة عندهم، وأنهم جاءوا ليخلّصوها من يد المسلمين.. إن نظرةً واحدةً على سلوك الفاتحين هنا، وعلى همجية الغزاة هناك؛ لَتُرِيَنا اختلافًا بين حضارتين في احترام القيم وإعلائها مثلَ الاختلاف بين السماء والأرض، أو أكثر بُعدًا.

وكمثال واحد، ننقل ما سجّله لوبون في كتابه المهم "حضارة العرب"، إذ يقول: "كان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس، غيرَ سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون.

قال كاهن مدينة لُوبوِي "رِيمُوند داجِيل": حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبُروجها؛ فقد قُطعت رؤوس بعضهم، فكان هذا أقلَّ ما يمكن أن يصيبهم، وبُقرت بطون بعضهم، فكانوا يُضطَرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحُرق بعضهم في النار، فكان ذلك بعد عذاب طويل.. وكان لا يُرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم؛ فلا يمرُّ المرء إلا على جُثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا".

سؤال القيم المشتركة

مع التسليم بأنه لكل نموذج فكري أو نسق حضاري قِيَمه الذاتية الأصيلة المعبرة عن جوهره وفلسفته، الكاشفة عن نقاط تميزه وتمايزه عما سواه من نماذج وأنساق؛ فينبغي ألا نغض الطرف عن أن ثمة قيمًا تبدو محل إجماع أو تقارب في التجارب الإنسانية، فهموم الإنسان واحدة وتطلعاته متشابهة.

ومن ثم، فالواجب أن ننظر في هذه المساحات المشتركة، وأن نعمل على تدعيمها، وتوسيع نطاقها، وترسيخها، وصولاً إلى تحقيق "التعارف" الذي جعله الله سبحانه غاية من خلق الناس: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾(الحجرات:١٣). ومهما يكن من أمر، فعالَمنا اليوم بحاجة إلى كل جهد يكوّن لبنةً تضاف إلى صرح القيم، ومن المؤكد أن القيم الإسلامية لديها ما يمكن أن تُسهم به، مما يشكِّل مع جهود الآخرين تدعيمًا قويًّا لهذا الصرح. ■

(*) كاتب وباحث، وسكرتير تحرير مجلة التبيان / مصر.

المراجع

(١) العطاء الحضاري للإسلام، للدكتور محمد عمارة.

(٢) القيم الحضارية في رسالة الإسلام، للدكتور محمد فتحي عثمان.

(٣) قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، للدكتور أكرم ضياء العمري.

(٤) مقدمة عمر عبيد حسنة لكتاب "القيم الإسلامية التربوية"، عبد المجيد سعود.

(٥) الفاشيون والوطن، لسيد القمني.

(٦) عالمية الإسلام، للدكتور شوقي ضيف.

(٧) حضارة العرب، لجوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، طبعة مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠م.

د. أسامة السيد الأزهري*

حب الوطن

نظرة تأصيلية شرعية

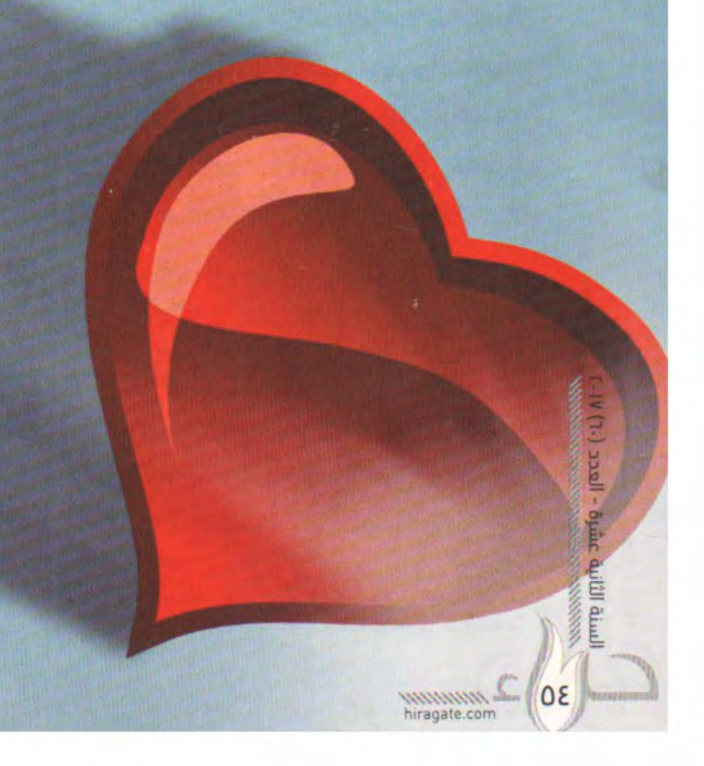
لقد غرس الشرع الشريف في نفس الإنسان حب وطنه، وزكى فيه دوافعه الفطرية النبيلة في الانتماء للأوطان وحبها والدفاع عنها، حتى أشار إلى نبل انتماء الإنسان لوطنه في عدد من الآيات والأحاديث النبوية.

إن الوطن في الحقيقة ليس حفنة تراب، بل هو شعب، وحضارة، ومؤسسات، وتاريخ، وانتصارات، وقضايا، ومكانة إقليمية ودولية، وتأثير سياسي وفكري في محيطنا العربي والإسلامي، ورجال عباقرة صنعوا تاريخ هذا الوطن في مجال العلم الشرعي وفي التاريخ الوطني الحافل بالنضال لحماية هذا الوطن، وفي التاريخ الاقتصادي والتاريخ العسكري، وغير ذلك من المجالات التي نبغ فيها العباقرة من أبناء هذا الوطن.

إن الشرع يكتفي في عدد من المسائل بثبات دوافع الطباع، فلا يأتي فيها الشرع بتشريع أو أمر معين، مطمئنًا إلى أن الطبع السليم كفيل بتوجيه الإنسان.

ومن هذه الأمور التي ينتجها الطبع السليم حب الوطن والانتماء إليه والوفاء له. وقد روى الدينوري في كتاب "المجالسة" من طريق الأصمعي قال: سمعت أعرابيًا يقول: "إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر كيف تحننه إلى أوطانه".

لمّا كان الانتماء مكونًا راسخًا من مكونات الفعل البشري، وهو من أهم مكونات الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فقد أكده الشرع الشريف، وانطلق منه، وعول عليه، ولم يقمه أو يتجاهله، ولكن عدّله ونسّقه، وحدد للمكلف معالم راقية للانتماء، تلبي ذلك الدافع القهري المنبعث من داخله، وتحفظه من مزالقه التي من



الممكن أن يؤدي إليها.

ثم إن الشرع الشريف لم ير بأسًا بوجود انتماءات جزئية في إطار ذلك الانتماء الكلي، تدعمه وترسخه، وتنبع منه، وتفضي إليه، ولا تخرج عن نسقه الكلِّي، فسمح بمحبة البقعة المحددة التي ولد فيها الإنسان وعاش وهي موطنه المباشر، ولا يتعارض ذلك مع محبة الأمة بأكملها، بل هو جزء منها، فإن غلب عليه حبه وانقلب تعصبًا يعادي من أجله المسلم الناس، فإن الشرع يرفضه. ومن هنا جاءت محبة الأوطان والديار، وأكد الشرع قضية حب الوطن، وكان ﷺ يحب مكة ويشتاق إليها مع أن المدينة مقره مثواه.

وانتماء الإنسان لوطنه لا يلغي ولا ينفي انتماءه إلى أمته العربية وعالمه الإسلامي، لأنها دوائر متداخلة.

والانتماء إما أن يزول فيدفع صاحبه إلى التنكر والتبرؤ من أوطانه وقومه وأهله، مما لا يجمل به الانسلاخ منه، وإما أن يزيد بصاحبه فيصل به إلى العصبية التي تجعل انتماءه هذا يفسد عليه ما يربطه بأبناء الدوائر الأوسع من الانتماء. ففارق بين حسن الانتماء والوفاء والقيام لكل دائرة من دوائر الانتماء بحقها بما لا يقطع روابط البشر وهو الذي نتحدث عنه، وبين التعصب الذي يجعل الإنسان شديد الحمية إلى دائرة بعينها من دوائر الانتماء، تجعله يعادي من سواها ويقاطعه ويتحامل عليه.

ولقد تبين مما سبق من كلام أئمة الهدى، أن حب الوطن دائرة من دوائر الانتماء، نطقت بها الفطرة، وسقاها الشرع الشريف ورعاها وأقام موازين القسط بينها وبين بقية دوائر انتماء الإنسان، بحيث لا يجور بعضها على بعض، وبحيث تتراكم وتتسق بما يحقق كمال إنسانية الإنسان.

ومما يجدر ذكره أن الأوطان ليست حدودًا جغرافية صنعها الاستعمار، بل الأوطان بقاع عريقة قبل الاستعمار بألوف السنين، واستقرار الوضع الحالي على تلك الحدود، يوجب علينا حفظها والدفاع عنها. ورفع تلك الحدود لا يكون بالتلاعب، بل بالاتفاقات العليا التي يتم إبرامها وفق آليات محترمة كما صنع الاتحاد الأوربي مثلاً، وما لم يتم ذلك فلا بد من احترام

حب الوطن دائرة من دوائر الانتماء، نطقت بها الفطرة وسقاها الشرع الشريف ورعاها، وأقام موازين القسط بينها وبين بقية دوائر انتماء الإنسان، بحيث لا يجور بعضها على بعض، وبحيث تتراكم وتتسق بما يحقق كمال إنسانية الإنسان.

الوضع القائم والحفاظ عليه وعدم تضييعه ولا انتقاصه ولا التفريط فيه، فضلاً عن أن قيمة الوطن ليست متعلقة أصلاً بفكرة الحدود، بل الوطن قيمة تاريخية وعلمية وإقليمية وعالمية.

حب الوطن في القرآن وكلام المفسرين

للإمام الفخر الرازي ملمح لطيف في الاستدلال من القرآن الكريم على حب الوطن، وأنه داع فطري شديد العمق في النفس، أشار إليه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾(النساء:٦٦) فقال: "جعل مفارقة الأوطان معادلة لقتل النفس".

كأن الله تعالى يقول: ولو أني كتبت عليهم أعظم مشقَّتين في الوجود لم يمتثلوا، وأعظم مشقَّتين هما قتل النفس، ويقابلها فراق الوطن، فمشقة قتل النفس في كفة، ويوازيها ويساويها تمامًا فراق الوطن.

ففراق الأوطان أمر صعب جدًّا يساوي ألم قتل النفس، مما يدل على أن التعلق بالوطن وحبه أمر عميق في النفس. وقال العلامة الملا علي القاري في "مرقاة المفاتيح": "ومفارقة الأوطان المألوفة هي أشد البلاء، ومن ثم فُسِّر قوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾(البقرة:١٩١) بالإخراج من الوطن؛ لأنه عقَّب بقوله: ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾(البقرة:١٩١)".

ومن ثم فإن كل آية تُظهر فضل الهجرة فإنها راجعة إلى هذا الأصل، والذي هو شدة الصبر ومغالبة النفس على فراق الأوطان المحبوبة إيثارًا لمعنى من المعاني الشريفة، فكم لهذا المعنى من قدر حتى تصبر النفس على تلك المشقة العظيمة لأجله.

قال الشاعر:

ثلاثٌ يَعِزُّ الصبرُ عند حلولها
ويَذْهَل عنها عقلُ كل لبيب

خروجُ اضطرار من بلاد يحبّها
وفُرقة إخوان وفَقد حبيب

حب الوطن في الحديث النبوي الشريف

روى البخاري، وابن حبان، والترمذي من حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفرٍ، فنظر إلى جُدُران المدينة، أوضع راحلته، وإن كان على دابة حركها من حبها.

ففي هذا الحديث الجليل تصرفٌ نبوي هادٍ، محفوف بالعصمة، تَحرَّك به الجَنانُ النبوي الشريف، ومن ورائه الإلهام الصادق والوحي المبين، بحنين القلب إلى الوطن ونزوع الفؤاد إليه، حتى إن كان ﷺ لَيُحرِّك دابتَه إلى المدينة المنورة إذا قفل من سفره، وأبصر جدرانها، من حبها وحنين الجَنان الشريف إليها.

ولذلك قال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري في شرح صحيح البخاري": "وفي الحديث دلالة على فضل المدينة، وعلى مشروعية حب الوطن والحنين إليه"، ونحوه عند البدر العيني في "عمدة القاري".

قال الحافظ الذهبي في "سير أعلام النبلاء": "وكان يحب عائشة، ويحب أباها، ويحب أسامة، ويحب سِبطيه، ويحب الحلواء والعسل، ويحب جبل أحد، ويحب وطنه، ويحب الأنصار، إلى أشياء لا تحصى مما لا يغني المؤمن عنها قط".

بل جعل العلماء حب الوطن هو علة مشقَّة السفر مطلقًا، حتى ذهب إلى ذلك بعض شراح الحديث في تفسير الحديث الذي رواه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر الجهني أنه ﷺ قال: "ثلاثة تستجاب دعوتهم: الوالد لولده، والمسافر، والمظلوم على ظالمه"؛ فعلّل الشراحُ سبب استجابة دعاء المسافر هو ما يعانيه من فاقة واضطرار وحزن لمفارقة وطنه وأهله. فقال العلامة المناوي في "فيض القدير" شارحًا للحديث: "لأن السفر مظنة حصول انكسار القلب بطول الغربة عن الأوطان، وتحمّل المشاق والانكسار من أعظم أسباب الإجابة".

وقال بعض الحكماء: "الحنين إلى الوطن من رقة القلب، ورقة القلب من الرعاية، والرعاية من الرحمة، والرحمة من كرم الفطرة، وكرم الفطرة من طهارة الرشد".

ولقد فطر الله تعالى الخلائق جميعًا على الميل الفطري الحنيف اللطيف إلى أوطانها، وأودع سبحانه في الفِطَر النقية من سائر الموجودات قرارًا وسكونًا وانشراحًا إلى الوطن، حتى إن المتأمل ليجد ذلك في سائر أجناس الوجود؛ فالآساد والأشبال تأوي إلى عرينها، والإبل تحن إلى أعطانها، والنمل يحن إلى قراه، والطيور تهوى وتميل إلى كناتها، والإنسان مجبول ومفطور على شدة الحنين إلى الوطن. وقد قال ابن الجوزي -رحمه الله- في "مثير الغرام الساكن": "والأوطان أبدًا محبوبة".

فإذا كانت أجناس الوجود كلها من حولنا، رغم أنها عجماء لا تفصح ولا تُبين، قد تَبيَّن من ملاحظة طباعها وأحوالها، شدة وفائها وحنينها إلى أوطانها، فالإنسان أولى بذلك منها لما يمتاز به عنها من الكمالات الإنسانية، التي تجعله محلاًّ لكل خُلق كريم، والوفاء والمروءة على رأس تلك الشمائل.

حب الوطن عند الفقهاء والحكماء

لقد ذهب الفقهاء إلى تعليل حكمة الحج وعظمة ثوابه، إلى أنه يهذب النفس بفراق الوطن والخروج على المألوف. قال الإمام القرافي في "الذخيرة": "ومصالح الحج تأديب النفس بمفارقة الأوطان".

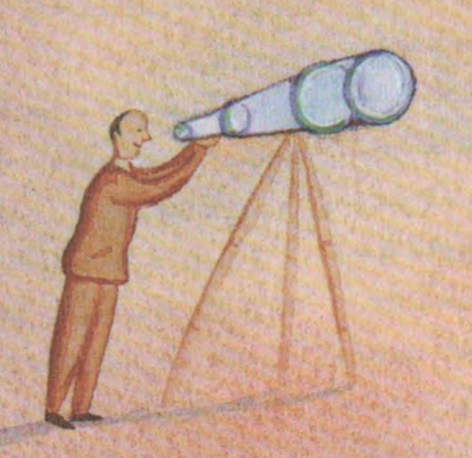
ولم يزل دأب الصالحين محبة الأوطان، حتى لقد روى أبو نعيم في "حلية الأولياء" بسنده إلى سيد إبراهيم بن أدهم أنه قال: "ما قاسيت فيما تركت شيئًا أشد عليَّ من مفارقة الأوطان".

وقد روى الدينوري في "المجالسة" من طريق الأصمعي قال: "سمعت أعرابيًا يقول: إذا أردتَ أن تعرف الرجل فانظر كيف تحنه إلى أوطانه، وتشوّقه إلى إخوانه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه". ■

(*) مستشار رئيس الجمهورية للشئون الدينية / مصر.



مرام البار*



لا تصدّق عينيك

قرأتُ عبارة متداولة في وسائل التواصل الاجتماعي تقول: "لا تأخذ بما تسمع، خذ بما ترى". فتساءلت بيني وبيني: أحقًّا ما نراه هو الحقيقة حتى نأخذ به؟ وهل فعلاً مظاهر الأشياء هي كما تبدو لأعيننا؟

ألا تبدو لنا الأرض ثابتة من تحت أقدامنا، في حين أنها تدور بسرعة هائلة تقدَّر بألف ميل في الساعة؟ أما نرى القمر أكبر حجمًا من النجوم المتناثرة في سقف السماء، والعلم يؤكِّد لنا أنها أضخم من القمر بملايين المرات؟ ألسنا نلمس الأشياء بأيدينا فنشعر بها صلبة متماسكة، والحقيقة العلمية هي أننا نعيش في عالم يتكون من ذرات متناثرة، والمسافة ما بين ذرة وأخرى في المادة التي نلمسها تبلغ بلايين الكيلومترات؟ أحقًّا تلمس أصابعي الآن لوحة مفاتيح الحاسب الآلي للطباعة، أم أنها تلمس قوى الجذب المغناطيسي بين ذرات الجهاز؟

لا تستهينن بمن يذكره الناس بسوء ويرتابون منه، فمحمد عليه الصلاة والسلام قد قيل عنه ساحر ومجنون، والحقيقة الساطعة أنه كان عند الله رحمة للعالمين وخاتمًا للنبيين.

ألهذا الحد تخوننا حواسنا كل يوم وتعطينا صورة وهمية لما حولنا؟!

الحقيقة أننا نعيش وسط عوالم خفية غير مرئية، ونلمس مواد لا نفهم كنهها، ومعظم ما نراه من حولنا ليس إلا ظلالاً للحقائق الكبرى. لا تأخذ بما تسمع ولا حتى بما ترى، هي ذي الحكمة التي ينبغي أن لا تفوتك. لا تصدّق عينيك، فهي لا ترى من الواقع إلا جزءًا بسيطًا ممّا يعج به الكون من حقائق.

الحقيقة لها أكثر من زاوية ولا وجود لحقيقة واحدة كما يتوهّم أكثرنا. تأمَّل معي البحر الصاخب بالحياة والأحياء، وقل لي بأي العيون المتعددة تراه؟ أبعين صياد لا يُبصر بين مياهه سوى سمكًا طازجًا يتوق شغفًا لاصطياده؟ أم تُراها عين طفل صغير لا يرى في شطآنه إلا قصر رمال وألعابًا بحرية؟ لعلها أعين غواص اعتاد البحث عن اللآلئ بين أحشائه، أو هي عيون عالِم أحياءٍ لا يَرى فيه سوى الرحم العظيم الذي تحتشد في أعماقه ممالك وأمم من الكائنات التي يأكل بعضها بعضا؟ ولربما تكون حدقتي جيولوجي يُبصر في أمواجه نحّاتًا بارعًا يتفنّن دون كلل في تشكيل القارات وتعرية السواحل وتفتيت صخورها؟ لعلها أعين شاعر حسّاس يَرى في بريقِ مياهه الجميلة قصائد زرقاء تشبه عيون من يحب؟ ربّاه! في أيّ هذي العيون الجمّة تكمن حقيقة البحر وجوهره؟

وتتناهى إلى سمعي محاولة الرومي تقريب مفهوم الحقيقة لأذهاننا وهو يترنّم بشاعرية آسرة: "الحقيقة كانت مرآة بيد الله، وقعت وتشظّت، كل فرد أخذ قطعة منها.. نظر إليها، وخال أنه يملكها كاملة". تمامًا كقصة الفيل والثلاثة الذين وُلدوا مكفوفين؛ عندما طُلب منهم أن يكتشفوا ما هو الفيل من خلال لمسه، فإذا بالذي تحسّس أقدامه يصفه بأنه أربعة أعمدة على الأرض، وإذا بمن أمسك خرطومه يشبّهه بالثعبان، وثالثهم الذي أمسك ذيله رآه كالمكنسة المرنة، وعندما تبيَّن لهم اختلاف آرائهم تشاجروا وتجادلوا، واتَّهم كل منهم الآخر بالكذب والادعاء، جاهلين أن للحقيقة عدة أوجه وأن كلاًّ منَّا يرى جزءًا منها لا يراه الآخر.

تختلف مستويات نظرنا إلى الحقيقة فيختلف فهمنا لها تبعا لذلك. كثيرًا ما نرى الشيء ذاته ولكن بعيون مختلفة وأفهام متباينة وأذواق متفاوتة، فالحقيقة نسبية بالنسبة لنا معاشر البشر. نحن ندرك الأشياء لا كما هي بل كما نحن، ندرك الأمور بحسب رؤانا للحياة ومعتقداتنا ووفق اهتماماتنا وأولوياتنا.

ولئن صَدَق هذا الكلام على الحقائق الكونية والمادية، فإنه يَصْدق أكثر في الحقائق الإنسانية. عندما جاءت مريم العذراء قومها وهي تحمل وليدها بين ذراعيها، اتَّهم أكثرهم الطهر والنقاء بارتكاب الفاحشة، اعتمادًا على حواسّهم الخارجية المحدودة، والتي لم تجد تفسيرًا آخر للحقيقة المخفية. كان الأجدر بهم أن يتواضعوا لله الذي يعلم السر وأخفى، ويقرّوا بجهلهم بدلاً من الخوض مع الخائضين واتهامها ظلمًا وزورًا. ينبغي ألاَّ نحكم على الأحداث والأشخاص وفق ما تُبصره أعيُننا وتلمسه أيدينا، فالعبرة ليست بالمظاهر ولا بما يبدو لتصوراتنا ورؤانا المحدودة.

في الناس مَن إن رأى بَغِيًّا أمامه، يسلقها بألسنةٍ حدادٍ متجاهلاً حكمة معلِّمنا العظيم صلى الله عليه وآله وسلم، الذي علَّمنا أن امرأة زَنا جسدها، تألمت روحها، فسقت كلبًا برحمتها وحنانها فعانقت الفضيلة. وآخرون لو أنهم شاهدوا ذاك الصحابي الذي يُؤتَى به دومًا شاربًا الخمر، لَلَعنوه أيضًا مع زمرة مَن لعنه، متناسين صرخة رسول الله فيهم محذِّرا: "لا تلعنوه، إنه يحب الله ورسوله". ما أقسى أحكام البشر! فهم لا يقيسون خلفية الذنب وضغوطاته الوجودية والأسباب التي أدت لحدوثه، بينما النبي يرى المسألة في أعماقها وجوهرها الإنساني.

إن ما نراه في الواقع، ليس هو الحقيقة وإن رأيناه رأي العين أو لمسناه باليدين. ومقاييس الإله في الحساب

ليست قاسية كمعايير أكثر البشر، وهو في حكمه على الأمور، لا يقوم بمفاضلةٍ حسابية جافة بعيدة عن القيم الجمالية والأخلاقية، بحيث يحاكم الإنسان على فعله بدون ربط الفعل بالنية، بل هو "الباطن" الذي يعلم حقيقة نوايانا ودوافعنا والأسباب التي قادتنا لاختيار السلوك الذي أبديناه مهما كان ظاهره مناقضًا لمعدن قلوبنا، لهذا قال تعالى للذين تباهوا بإيمانهم في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، ممن ظاهرهم الإيمان وباطنهم خلافه: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾(الحجرات:١٤). وهنا نفهم حكمة نبيّه عيسى عليه السلام عندما صدع بالحقيقة الأخلاقية في وجه مجتمعه القاسي، الذي ما رحم المرأة البغي في حكمه الجاف على تصرفها والمجرّد من فضيلة الرحمة الإنسانية قائلاً لهم: "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر".

صدق من قال: لا تستهينن بمن يذكره الناس بسوء ويرتابون منه، فمحمد عليه الصلاة والسلام قد قيل عنه ساحر ومجنون، والحقيقة الساطعة أنه كان عند الله رحمة للعالمين وخاتمًا للنبيين. لا تهزأ بمن أفلس بعد أن كان ثريًّا وتصفه بالخاسر، فأيوب عليه السلام تعرض لنفس الأزمة وكان عند الله نبيًّا. لا تغتب مسجونًا وتُنصِّب نفسك قاضيًا في أحداث جريمته، فيوسف عليه السلام سُجن ظلمًا لكنه كان عند الله صِدّيقًا. لا تسخر ممن ابتلاه الله بزوجة سوء فتصفه بضعيف الشخصية لصبره على أذاها، قد كان لنوح عليه السلام زوجة عاصية صبر عليها وكان عند الله صفيًّا. احذر من تنصيب نفسك جلاّدًا للآخرين بناء على ما ترى، واجعل من حسن الظن في الآخرين خُلُقًا جميلاً تتحلّى به، ودع الخَلْق للخالق، فشتّان ما بين بصر العين وبصيرة القلب.

ثمّة حسناء لم تبصر النور يومًا خلّدت لنا حكمة عميقة تقول: "الأشياء الأجمل في العالم لا تُرى ولا يُمكن لمْسها، بل يجب أن يشعر بها قلبك فحسب". وإني كمثلها هذي الهيلين كيلر رغم نعمة البصر، أؤمن بأن أعظم الأشياء وأعلاها مكانة واقعة في الغياب. يؤيّدني في قناعتي فيلسوف فرنسي كتب عبارة حكيمة تقول: "أغمض عينيك تُبصر".

احذر من تنصيب نفسك جلادًا للآخرين بناء على ما ترى، واجعل من حسن الظن في الآخرين خُلقًا جميلاً تتحلى به، ودع الخَلق للخالق، فشتّان ما بين بصر العين وبصيرة القلب.

وقبل أربعة عشر قرنًا من الزمان، أشار القرآن العظيم إلى حقيقة الإبصار الداخلي في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(الحج:٤٦).

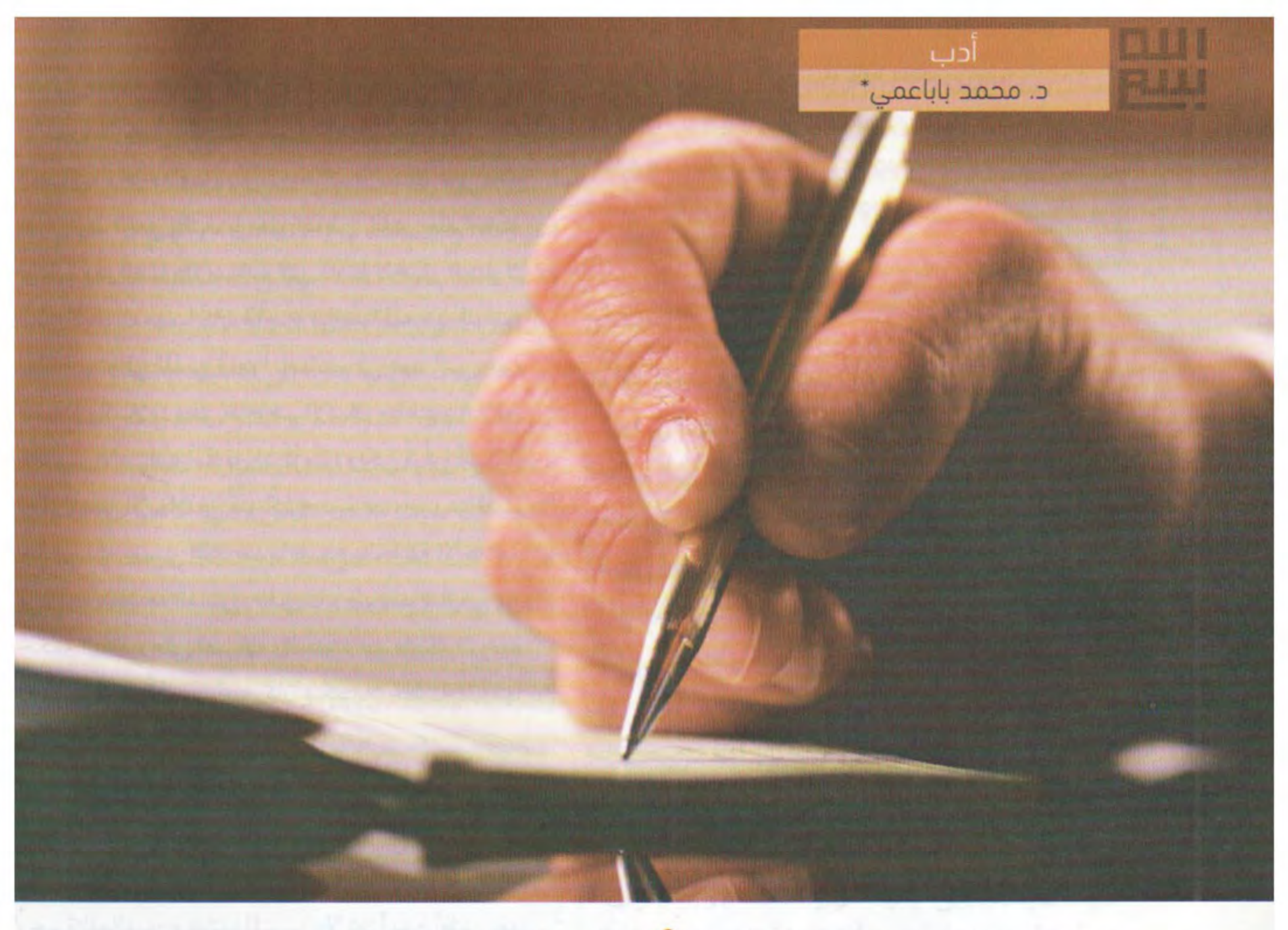
والفروق كثيرة بين البصر والبصيرة؛ أبسطها أن المرء حين ينظر بقلبه يرى الانسجام وراء الفوضى، يرى الأمل يولد من اليأس، ويرى الجمال مهما بدت عباءة القبح.. فإذا كان "البصر" هو أن نرى ظاهر الأشياء من وراء نظارة، فإن "البصيرة" أن نرى باطنها ودوافعها الحقيقية وجوهرها بالمجهر المكبّر. البصيرة أن نعتمد على حاسة الإبصار الداخلي الذي يفتح أبواب الرحمة والحب في وجداننا تجاه الآخرين مهما بدى لنا من خطاياهم، أن نلتقي بالله، بالجمال، بالحقيقة.. بقلوبنا لا بأعيننا.

ما هذا الوجود الذي نعيشه سوى حلم. نعم، نحن الآن في حلم. حياتنا مجرد حلم وسكرات غفلة. وعند الموت نذهب إلى الحقيقة، نستيقظ، ننتبه فعلاً.. فلحظة الموت وحدها هي لحظة الاستيقاظ الحقيقية.

إلهي ارزقنا نور البصيرة في حياتنا، ولا تجعلنا ممن سيتفاجأ بعد مماته بالحقيقة المُرّة عندما يُقال له: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(ق:٢٢). اجعل بصر قلوبنا حديدًا اليوم قبل الغد، وأخرجنا من ظلمات أنفسنا إلى نورك. أنت الحق والنور الذي ليس كمثله شيء، وأنت ما نرى من جمال حيثما تطلعت عين، لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنتُ من الظالمين. ■

(*) أديبة إماراتية.

د. محمد باباعمي*



همُّ الكتابة
بين شُعلة الجريد ومددِ العزيز الحميد

حين يكون قدَر الإنسان أن يمارس الفكرة والفكر، وحين تكون الكتابةُ هي جهادُه وهجرته، وحين يكون نبضُ اليراع موسيقاه وطعمُ الحبر سُلافته، وحين يتحوَّل الكتاب في منطقه إلى معشوقة لا يصبر عليها؛ تتبدَّى له حزمةٌ من الأسئلة التي لا تفارقه حتى ولو تنكَّر لها ألف مرَّة، منها:

لماذا أكتب؟ وماذا أكتب؟ ومتى أكتب؟ ولمن أكتب؟ وكيف أكتب؟ وهل لِمَا أكتب جدوى؟ وما السبيل لمعرفة آثار ما أكتب؟ وهل ما أكتب ملائم للعصر وللمرحلة؟ أم أنه نشاز في سمفونية الزمان والمكان؟ وهل يَضرب قلمي بأوتاد وجذور في عالم المعنى؟ أم أنه مجتَثٌّ من أصله، عارٍ من أوّله إلى آخره؟

وإذا تقدَّم الكاتب خطوة إلى الأمام وارتقى درجة نحو سماء الأفهام، فإنه يسَّاءل بقلب نابض وضمير حي: هل أدَّيتُ واجبي بما أكتب؟ وهل أرضيت ربِّي؟ وهل نفعت عيالَه وخلقه؟ وهل زرعتُ الكلمة الطيبة في حقول الناس، وعلى سهوب البشر؟ وهل شاركت في مهرجان الخير والبرِّ بما علَّمني ربي سبحانه؟ وهل أتقنتُ وأحسنتُ؟ وهل صدقتُ

وأخلصتُ؟ وهل كانت هجرتي (أعْني كتابتي وهمَّتي) لوجه الله وحده؟ أم كانت لمآرب أخرى؟

غير أن ذات الكاتب إذا تنصَّل من لَبوس الحق، وإذا تكبَّر عن الخلق، ثم إذا هو جحد ربَّ الحقِّ والخلق، فإنه يقيء دومًا أسئلة من قبيل:

ما حدُّ الشهرة التي نِلتها بكتابتي؟ وهل سيَرضى الحاكِم عني فيُجزل لي العطاء؟ أم هل ستقف الجماهير ورائي، وتنعتني بالبطل المغوار؟ وهل يفنى اسمي من الوجود بعد موتي؟ أم أنه سيبقى محفورًا في ذاكرة العالم؟

ما بين هذا وذاك، تكون الشهرةُ دائمًا هي معيار الصواب في منطق الرِّعاع، ومن ثم تجدهم يُعلون مِن شأن "نزار" و"أحلام" و"أدونيس"، ويُخفِضون من مقام "علي عزَّت"، و"ابن نبي"، "وفتح الله"، ولقد عمِلت ذهنية "البوب" على حساب عدد المصفِّقين، وعدد الذين يفغرون فَاهُم أمام مرايا الكلمات والنغمات، ويسهرون في عدِّ التغريدات والتحبيبات، ويفرحون لفرح الجحافل المعجَبين؛ غايتهم في ذلك تعيين الأفضل في الترتيب، وتحديد الرقم الأوَّل في السباق.

البعض من الكتَّاب والمتكلِّمين حالهم مثلَ حال "شعلة الجريد"، تلتهب بسرعة وشدَّة، ثم تخبو بأسرع من ذلك وأشدّ؛ تكثُر جعجعتهم ويقلُّ طحينهم؛ بل مثلَ إناء من حديد مثقوبٍ يُنزَّل في بئر فارغ، فيقلب الدنيا ضجيجًا، ثم حين يصعد، يصعدُ ولا شيء فيه إلاَّ الصدأ والقبح.

غير أن البعض الآخر، ممن أنار الله قلوبهم، وأرشد عقولهم، وثبَّتهم على الحق المبين، ثم أنزلهم منزلة المقرَّبين المكرَّمين.. هؤلاء القلَّة، حتى ولو لم تُكتب لهم الشهرة، وحتى لو لم تردِّد "صالات الفجور" مقالهم، ولم تنقل "قنوات الجور" أسماءهم؛ فإنهم سيغدون مثل تلك الزهرة العطِرة، التي جمَّلها الجميلُ بالحُسن، وأذكاها الجليل بالعطر، وحبَّبها العزيز إلى قلوب المخلَصين، سواء في ذلك رأوها أم لم يروها، سمعوا عنها أم لم يسمعوا.. "وكفى بالخير سماعه".

والعاقل من بني البشر إذا وعى يصرخ ويقول بملء فيه: أنا في ضعفي وحاجتي إلى المدد، حين أنظر إلى ما كتبتُ، وحين أعود بالذاكرة إلى أوَّل مقال نضدت،

يعاودني "سؤال الكتابة" كلّما خمّرت فكرة في "أحشائي"، ويظَلُّ "السؤال" يحفر في سفوح عقلي بلا هوادة، ولا ينفصل عني حتى أُنهي السطر الأخير من المكتوب؛ ثم حين أُودِعه القدَر الحكيم ليصل به حيث يشاء، وليفعل به ما يريد.

وإلى أوَّل بحث أعددت، وإلى أوَّل كتاب نشرت.. ثم أتابع خطَّ السير في علوِّه ودنوِّه، في تسارعه وتباطؤه، في جودته ورداءته، حين أفعل ذلك وقد فعلتُ؛ فإني لا أملك أجوبةً، بل أسئلة.. ولا أنهي الفكرة، بل أشرع فيها.. ولا أقدِر على الحكم، بل أقيس الجهد ونبضات القلب، وكفى.

ولا أقول: "أتيت بما لم تستطعه الأوائل"، لكنني أقول: "قصاراي أني حاولت، وعلى الله قصد السبيل".

ويعاودني -مع ذلك- "سؤال الكتابة" كلَّما خمَّرت فكرةً في "أحشائي"، ويظَلُّ "السؤال" يحفر في سفوح عقلي بلا هوادة، ولا ينفصل عني حتى أُنهي السطر الأخير من المكتوب؛ ثم حين أُودِعه القدَر الحكيم ليصل به حيث يشاء، وليفعل به ما يريد.

لا أرتاح من "سؤال الكتابة" بل يشتدُّ عليَّ وقعه، ويُلهبني ضِرامه، فأظَلُّ ألهج بالدعاء لربِّ الكاتب، ولربِّ الكتاب، ولربِّ القارئ لما كُتب.. أن ينزل القبول على القلوب الوجلة، وأن يفتح بابًا عنده فيصعد منه كلمي الطيِّب، ثم يَرفع إليه -بِجُودِه سبحانه- عملي الصالح.. ثم يغفر لي زلاتي، وينزلني منزلة الأبرار، ولا يعنيني إذ ذاك رضي "القُرَّاء" أم لم يرضوا، فكلُّ الرضا في رضا المولى الجليل.

فهل -أخي الحبيب- تملَّكك يومًا عضال "سؤال الكتابة"، فتقلَّبت في فراشك مثل محموم؟ وتلوَّيت على جنبيك مثل صريع؟ وعانقت الهمَّ والتوتر المستميت مثل مجنون؟

أنتظر منك الجواب، أو بالأحرى لا أنتظر الجواب. ■

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.



شعر
د. حسن الأمراني*

نبعة الطّيب

للشوق أجنحة خضراء تذْكيها … قصيدة منك يا أبهى قوافيها

يا راحة الروح في دنيا مروّعة … يا واحة العمر في صحراء أطويها

يا خمرة بدماء النور مترعةً … تسقي دمائي حُميّاها وتفديها

إن صوّح الورد من عينيك أنعشه … أو جفّت السنبلات الخضر أسقيها

يا قبلة القلب إن صلى وكعبته … يا روضة الروح يا أزهى مغانيها

كم زفرة في ضمير الليل يرسلها … كأنما جبل التوباد يلقيها

وكم تضرّع للرحمن مبتهلاً … وكم أذاع دموعًا كان يخفيها

وكم لديه من الأسرار لا أحد … إن فاضت الكأس بالأسرار يدريها

وكم لديك من الأنوار يقبسها … وكم لديه من الأشعار يهديها

أكتّم الشوق؟ لا سالت بأوردتي … إذن قصائد عشت العمر أحميها

هل كتّم الشوق سعدي إذ أضرّ به … وهل طواه جلال الدين تمويها

يا نبعة الطيب غاض الطيب من قدحي … واجتث صمتك من روحي دواليها

فجددي في دمي الإيمان وانتشري … حلمًا تسامق تأويلاً وتشبيها

سحابة من سماء الغيب طيّبةٌ … للعالمين يد الرحمن تسجيها

(*) رئيس تحرير مجلة المشكاة / المغرب.

نور الدين صواش*



سحلية جيكو وتقنية النانو

قام الباحثون بدراسات دقيقة حول سحلية تسمى "جيكو" (Gecko)، ليعرفوا سرَّ تسلُّقها على الجدران وجرْيها على الأسقف رأسًا على عقب دون السقوط على الأرض؛ فذُهلوا عندما وجدوا أن هذه السحلية تملك مليوني (٢,٠٠٠,٠٠٠) شُعَيرة ميكرومترية الحجم في كل إصبع من أصابعها، وازدادوا دهشة حين رأوا أن كل شُعَيرة من هذه الشُّعَيرات تتفرَّع إلى ألف (١٠٠٠) شُعَيرة نانوية دقيقة. وعندما قاموا بحساب هذه الشُّعَيرات ووجدوها ملياري شُعَيرة لا تزيد ولا تنقص، وَقَفوا مشدوهين؛ إذ اكتشفوا أن هذا العدد هو ما يعطي للسحلية قابلية الالتصاق بهذه القوة الهائلة، ولو أن واحدة من هذه الشُّعَيرات نقصت، لَفقدت هذه السحلية بالمرة موهبة تسلق الجدران والجري عليها.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذه الشُّعَيرات أدقُّ من الشَّعْرة الواحدة للإنسان بعشرة أضعاف.. ولو افترضنا أن رأس الإنسان يحتوي على ملياري شَعْرة، فكم يحتاج ذلك الإنسان إلى مساحة لشَعْره يا ترى؟ يحتاج بالحسابات الدقيقة إلى مساحة تعادل ملعب كرة للقدم بكل تأكيد، علمًا بأن عدد شَعْر الإنسان في رأسه لا يتجاوز المئة ألف (١٠٠,٠٠٠) شَعْرة.

ذكرنا أن الشُّعَيرات النانوية في أقدام جيكو، تتيح الالتصاق على السطح بقوة خارقة، فكيف ذلك؟

ثمة شحنات موجبة وسالبة بين الشُّعَيرات وجزيئات السطح، وعندما تقوم السحلية بلصق قدَمها الواحدة -وفي آن واحد- بأكثر من مئة مليون نقطة من السطح، يحدث انجذاب هائل بين الشُّعَيرات وجزيئات السطح يمكِّن السحلية من الالتصاق بقوة لا يمكن فصلها إلا بالسحب العمودي لا الأفقي. وهذا ما يفعله الجيكو أصلاً؛ إذ يرفع قدَمه ويضعها ١٥ مرة في الثانية الواحدة بهذه الطريقة، فيتمكن من فصلها رغم الالتصاق الهائل الذي لا نظير له في العالم.

نعم، وُهبت سحلية جيكو قدرة خارقة على الثبات في الأسقف رأسًا على عقب حتى وإن كان من زجاج، إذ تقوم بضغط يفوق وزنها ١٢٠٠ ضعف؛ ومعنى ذلك أنه لو كان لإنسانٍ -يزن ٨٠ كلغ- يدان مجهَّزتان بنفس النظام لدى أقدام جيكو، لاستطاع ذلك الإنسان الالتصاق بالسقف بيديه، ورفع شاحنة بوزنٍ قدره تسعة أطنان بالتمام (طبعًا هذا من باب التشبيه فقط).

لقد قام العلماء بمحاكاة هذا المخلوق الصغير (جيكو)، وصنعوا من أنابيب الكربون النانوية شريطًا لاصقًا يعمل بنفس التقنية فيلتصق على الأسطح بقوة. ومَن يدري لعل العلماء يهتدون في الأيام القابلة، إلى إيجاد نظامٍ شبيه بسحلية جيكو؛ يمنع انزلاق السيارات وانحرافها عن الطريق مهما كانت السرعة. ■

(*) كاتب وباحث تركي.



مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

مجلة علمية ثقافية أدبية
تصدر كل شهرين عن دار النيل
للطباعة والنشر والتوزيع

نوع النشر
مجلة دورية تصدر كل شهرين

الطباعة
دار الجمهورية للصحافة

رقم الإيداع
٢٤٢٦١

ISSN 2357-0229

المنحى العام

- حراء مجلة علمية ثقافية أدبية تعنى بقراءة الكون والإنسان والحياة من منظور قرآني حضاري إنساني.
- تهدف إلى بناء الإنسان المتوازن علميًّا وفكريًّا وسلوكيًّا.
- تسعى إلى أن تكون إضافة نوعية مفيدة في الساحة الثقافية شكلاً ومضمونًا.
- مجلة حراء ملتقى للفكر الإيجابي الحضاري البنّاء.
- تنطلق من رؤية حضارية تستمد طاقتها من ثراء الخبرة التاريخية للأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية لمعالجة قضايا الواقع واستشراف آفاق المستقبل.
- تسعى إلى معالجة المعارف الإنسانية من منظور تآلفي بين العقل والقلب، والعلم والإيمان، والفرد والمجتمع، والروح والمادة، والنظري والتطبيقي، والمحلي والعالمي، والأصالة والمعاصرة.
- تحرص على الصحة في المعلومة، والإيجابية في الطرح، والعمق في التحليل، والإثارة في الكتابة، والحرية في التعبير مع احترام المقدسات والخصوصيات، والالتزام بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية المشتركة، والإنصات إلى الآخر، والانفتاح على الحكمة الإنسانية حيثما كانت، والحوار البنّاء الذي يخدم الإنسان ويفيده؛ كما تحرص على الابتعاد عن الإقصاء والاستفزاز والإساءة والعنف والتطرف والسطحية والسلبية فيما تنشر.
- تهدف إلى الجمع بين عمق الفكرة، وجمالية الصياغة، وبساطة العبارة، ووضوح المعنى في أسلوب الكتابة.

معايير النشر

- أن تكون المادة المرسلة جديدة لم يسبق نشرها.
- ألا تتجاوز عدد الكلمات ٢٠٠٠ كلمة. وهيئة التحرير لها الحق في التصرف تلخيصًا واختصاراً.
- المادة المرسلة تخضع لتحكيم لجنة علمية استشارية، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء تعديلات على المادة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة تحتفظ بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وطبقًا للتوقيت الذي تراه مناسبًا.
- للمجلة الحق في أن تكتفي بنشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون استئذان كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال رغبته في النشر في المجلة الورقية حصريًّا. علمًا بأن ما ينشر إلكترونيًّا لا يترتب عليه أي مكافأة مالية.
- المجلة تلتزم بإبلاغ الكتاب بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- للمجلة حق إعادة نشر المادة منفصلة أو ضمن مجموعة من المقالات بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى لغة أخرى دون استئذان صاحب المادة.
- المقالات المنشورة في مجلة حراء تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- مجلة حراء ترجو كتابها الأكارم أن يرسلوا مع المادة نبذة مختصرة عن سيرتهم الذاتية مع صورة واضحة لهم.

ترسل جميع المشاركات إلى البريد الآتي: hiragate@yahoo.com

EGYPT
٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد - الحي السابع، مدينة نصر - القاهرة.
هاتف: +201091242075 - +201119482609
hiraegypt@gmail.com

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 22

NIGERIA
Nusret Educational And Cultural Co. Ltd.
Aguiyi Ironsi St. No: 77/B Maitama - Abuja
Phone: +2349030222525
nusretnigeria@gmail.com

IRAQ
Kani Irfan Publishing English Village N°9 / Erbil
Phone: +964 750 713 8000

USA
Tughra Books
Clifton Ave., Clifton, NJ, 07011, USA 345
Phone: +1 732 868 0210
Fax: +1 732 868 0211

EUROPE
World Media Group AG
Sprendlinger Landstrabe 107-109
63069 Offenbach a. Main / Germany
Phone: 069 / 300 34 130
Fax: 069 / 300 34 105
dergiler@wmgag.eu


حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com
مضى على تصحّر الأرض سنون وسنون،
وهْي ظمأى إلى قطرات السما،
فإنْ من بكاءٍ فذا أوانُ البكا،
لنبكِ، فقد لاحت تباشير الرُّؤَى.
* * *
ISSN 2357-0229
9 772357 022004
60
www.hiragate.com